

سلسلة إصدارات

مركز الإمام البخاري للأبحاث والترجمة (٩)

كانو - نيجيريا

العلمانية

وأثرها

في المجتمعات الإسلامية

محمد الثاني عمر موسى

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

٢٠١٥/١٤٣٦ هـ

ISBN 978-978-53928-5-2

الناشر

مركز الإمام البخاري للأبحاث والترجمة . كانو .

نيجيريا

First Edition 1436\2015

©All Rights Reserved.

المدخل :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين
نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد :

فُيَعَدُّ الحديث عن (العُلَمَائِيَّة) وأفكارها وتأثيرها في الحياة
البشرية اليوم من أوسع ما كتبت أقلام المفكرين والباحثين والعلماء
عنه، ما بين مؤيد مدافع ومنكر معارض، وبين رسالة علمية وبحث
حر ؛ وذلك لأنه منهج اكتسح حياة البشرية اليوم، وكادت آثارها
تطال كل نواحي الحياة ومناحي الإنسانية، بل طالت...

وما هذا البحث إلا إسهام في هذا المجال بكشف - ولو
بإيجاز - ما لهذا الجسم الغريب من تأثير على المجتمع الإسلامي
المعاصر، والحياة الدينية المعاصرة، ومدى تناقضه للمقررات
الإسلامية التي وعد المسلم ربه أن يتلزمها ويعيش تحت سلطانها،
ولكنها لم يكتب لها النجاح بإخراج المسلمين عن دينهم بالكلية
(كما يريد أصحابها أن تكون، لأنها مناقضة لطبيعة الإسلام

الذي تدين به الشعوب المسلمة، ومناقضة لتعاليمه وسلوكه ، وتاريخه ... ولا يوجد أن مبرر لقيامها كما وجد ذلك في الغرب النصراني .

كل ما تفعله العُلَمانيَّة أنها تحاول أن تغيّر طبيعة الأمة واتجاهها، والأمة لا تستجيب لها، حيث ترفض أجهزة المناعة في كيانها زرعَ هذا الجسم الغريب في داخلها، وتقاومه بكل قوة، فينشأ بين الحاكم العلماني وبين الأمة المسلمة صراعٌ يظهر حيناً ويختفي أحياناً ويتمدُّ يوماً، وينكمش يوماً آخر، ولكنه صراع مستمر ، لأنه صراع بين الذات وبين العدوان على الذات، وقد يكمن كمون النار في البركان، ولكنه لا بد يوماً أن ينفجر^(١).

وسيتناول البحث بيانَ مفهوم العُلَمانيَّة كما وردت في المعاجم اللسانية، وأسباب نشأتها في الغرب النصراني، وسبل تسربها إلى العالم الإسلام وما أدى ذلك من بروز آثار ونتائج خطيرة على

(١) القرضاوي، يوسف عبد الله: الإسلام والعُلَمانيَّة وجهها لوجه، مكتبة وهبة، القاهرة، (بدون ط. وتاريخ)، ص ٥٤.

الحياة الفكرية والعلمية والتربوية والاجتماعية وغير ذلك من نواحي الحياة في المجتمعات الإسلامية، ثم يتطرق البحث في خاتمته إلى إلقاء ضوء حول سبيل استعادة هوية الأمة في ضوء المعطيات الراهنة، والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل.

محمد الثاني عمر موسى

مدينة كانو - حرسها الله تعالى

جمادى الثاني ١٤٣٦هـ / أبريل ٢٠١٥م.

مفهوم (العَلْمَانِيَّة)

لم يرد تعبير (العَلْمَانِيَّة) في المعاجم العربيَّة القديمة ، وإمَّا ورد لأوَّل مرَّةٍ في معجمٍ ثُنائيِّ اللِّغة (فرنسي - عربي) ألفه أحدُ تراجمَةِ الحَمَلَةِ الفرنسيَّة وهو لُويس بقطر المصريّ، وطُبِع الجزء الأوَّل في باريس سنة ١٨٢٨م، ثم دخلت الكلمة بعد ذلك إلى اللِّغة العربيَّة ، وأوَّل معجمٍ عربيٍّ ورد فيه هذا التَّعبير هو (المعجم الوسيط)^(١)، الصَّادر عن مجمَّع اللِّغة العربيَّة بالقاهرة^(٢).

(١) مجموعة من الباحثين: المعجم الوسيط، المكتبة العلمية - طهران، (بدون تاريخ وطبعة) (٦٣٠/٢) وفيه : « (العَلْمَانِي) نسبة إلى العَلْم بمعنى العالم، وهو خلاف الديني أو الكهنوتي».

(٢) الصاوي، صلاح، موقف الإسلام من العَلْمَانِيَّة ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ط. الأولى، ١٤٢٢هـ، السعودية، ص٧.

وهذا اللفظ (العَلْمَانِيَّة) ترجمةٌ خاطئةٌ لكلمة (Secularism) في الإنجليزية، وهي كلمةٌ لا صلة لها بلفظ (العِلْم) ومشتقاته على الإطلاق^(١).

فـ(العِلْم) في الإنجليزية معناه (Science)، والنسبة إلى (العِلْم) هي: (Scientific).

والترجمة الصّحيحة للكلمة هي (اللادينيّة) أو (الدُنْيويّة)، وهو ما لا صلة له بالدِّين ، أو كانت علاقته

(١) وقع بعض المخلصين في خطأ علمي، حيث اشتبه لهم هذا اللفظ، فظنّوه نسبةً إلى (العِلْم)، فادّعوا أنّ الإسلام دينٌ علماني - أي يهتمّ بالعلم في كلّ شأنٍ من شؤونه. ومن حصل لهم ذلك الشّيخ محمّد متولّى الشّعراوي، انظر: الهادي، محمّد زين : مجالات انتشار العَلْمَانِيَّة وأثرها في المجتمع الإسلامي، دار العاصمة ، ط. الأولى ١٤٠٩هـ، السعودية (ص ٩٥-٩٨).

بالدّين علاقةً تضادّ^(١) .

ويؤيّد هذه التّرجمة ما جاء في «دائرة المعارف البريطانيّة»^(٢) في تعريف (Secularism) بأنّه: (حركةٌ اجتماعيّةٌ تهدف إلى صرف النّاس وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بهذه الدّنيا وحدّها)^(٣).

(١) انظر : الحوالى، سفر بن عبد الرحمن: العُلَمائيّة: نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلاميّة المعاصرة، مكتبة الطيب، ط. الثانية، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، القاهرة، ص ٢١.

(٢) انظر : www.britanica.com/EBchecked/532006/secularism

(٣) انظر : الحوالى، المصدر السابق، ص ٢٢. وانظر : أيضا : البار، محمد علي: العُلَمائيّة: جذورها وأصولها، دار القلم، دمشق، ط. الأولى، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص ٢٦-٣٠.

وإنما تُرجمت الكلمة الأجنبية بهذا اللفظ (العِلْمَانِيَّة)؛ لأنّ
الَّذِينَ تَوَلَّوْا التَّرْجَمَةَ لم يفهموا من كلمة (الدِّين) و(العِلْم) إلّا
ما يفهمه الغربيّ المسيحيّ منها ، و(الدِّين) و(العِلْم) في
مفهوم الإنسان الغربيّ متضادّان متعارضان، فما يكون
(دينيّاً) لا يكون (عِلْمِيّاً)، وما يكون (عِلْمِيّاً) لا يكون
(دينيّاً)، ف(العِلْم) و(العقل) يقفان في مقابل (الدين)،
و(العِلْمَانِيَّة والعقلانيّة) في الصّفّ المضادّ للدين^(١).

وهذا المفهوم الخاطئ قد انطوى على تلبسٍ خطيرٍ؛ لأنّ
في نسبة هذا التعبير إلى (العِلْم) مما يحجب حقيقة المعنى
الَّذي يتضمّنه ... ويُدخله في دائرة القبول العام، خاصّةً أنّ
مجرّد الانحياز إلى العِلْم لا يعني نبد الإيمان، أو استبعاد الدِّين

(١) القرضاوي، يوسف: الإسلام والعِلْمَانِيَّة وجهها لوجه، (ص ٤٢-٤٣).

بالضّرورة، بل لا بدّ لإبراز هذا المعنى من التّحليل والتّوضيح الأمر الذي تأباه طبيعة المصطلحات^(١).

وهناك تعبيرٌ قاصرٌ لمفهوم (العُلَمانيّة) يقع في كلام كثير من المتكلّمين في هذا الباب، وهو التّعبير عنها بأنّها : (فصل الدّين عن الدّولة) ، فإنّ هذا التّعبير لا يعطي المدلول الكامل للعُلَمانيّة، الّذي ينطبق على الأفراد وعلى السّلك الذي قد لا يكون له صلةٌ بالدّولة، ولو قيل : فصل الدّين عن الحياة لكان أصوب^(٢).

ويمكن في الجملة عن نعرّف (العُلَمانيّة) بأنّها : (إقامة الحياة على غير الدّين، سواء بالنّسبة للأمة أو الفرد ، ثم

(١) الصاوي، صلاح : موقف الإسلام من العُلَمانيّة، (ص ٨).

(٢) انظر : الحوالي، العُلَمانيّة، (ص ٢٣-٢٤).

تختلف الأفراد في موقفها من الدين كالمجتمعات الديمقراطية الليبرالية، وتسمي منهجها بـ(العلمانية المعتدلة) (Non-Religious) - أي أنها مجتمعات لا دينية ، ولكنها غير معادية للدين، وذلك مقابل ما يسمى بالعلمانية المتطرفة (Anti-Religious) أي المضادة للدين ، ويعنون بها: المجتمعات الشيوعية وما شاكلها^(١).

فكأنّ مدلول العلمانية المتفق عليه يعني : عزل الدين عن الدولة وحياة المجتمع، وإبقائه حبيسًا في ضمير الفرد لا يتجاوز العلاقة الخاصة بينه وبين ربّه، وإن سمح له بالتعبير عن نفسه ففي الشّعائر التّعبدية والمراسم المتعلقة بالزواج والوفاة ونحوها^(٢).

(١) الحوالي : المصدر السابق، ص ٢٤.

(٢) انظر : القرضاوي، الإسلام والعلمانية، (ص ٤٥).

العُلْمَانِيَّةُ فِي الْغَرْبِ: نَشْأَةٌ وَأَسْبَابُ

نشأت العُلْمَانِيَّةُ فِي أوروپَا الصَّلِيبِيَّةِ فِي أعْقَابِ صِرَاعِ طَوِيلٍ بَيْنَ الْكَنِيسَةِ وَبَيْنَ السُّلْطَةِ، إِذْ سَيِطَرَتِ الْكَنِيسَةُ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالْعِلْمُ وَالتَّرْبِيَّةُ وَالأَخْلَاقُ وَالسِّيَاسِيَّةُ وَالاِقْتِصَادُ وَالحُكْمُ وَالأَدَبُ وَالفنُّ مَرُدُّهُ إِلَى سُلْطَانِ الْكَنِيسَةِ، وَكُلُّ مَا خَالَفَ تَفْسِيرَاتِ الْكَنِيسَةِ وَمَقُولَاتِهَا فَهُوَ بَاطِلٌ، وَكُلُّ مَنْ اعْتَنَقَ شَيْئًا مُخَالَفًا لِمَا تَقُولُ بِهِ الْكَنِيسَةُ وَجَبَتْ مَحَاكِمَتُهُ، وَرَبْمَا صُلِّحَ بِهِمُ الأَمْرُ إِلَى إِعْدَامِهِ حَرْقًا، وَقَدْ بَلَغَ الَّذِينَ صَدَرَتْ ضَدَّهُمْ أَحْكَامٌ مِنَ الْكَنِيسَةِ (٢٤٠) أَلْفًا حَتَّى سَنَةِ ١٨٠١ م أُحْرِقَ مِنْهُمْ مِئَتَانِ أَحْيَاءً^(١).

(١) انظر : الصاوي، موقف الإسلام من العُلْمَانِيَّةِ، (ص٩-١٠).

لقد أدّت أسبابٌ عدّة إلى نشوء هذا الاتجاه العلمانيّ في أوروبا وتطوّره حتى اكتمل، وشمل كلّ ميادين الحياة عندهم، ويمكن أن نوجز بيانَ هذه الأسباب في الجمل التّالية:

أولاً : الطُّغيان الكنسي :

لقد تعرّض أتباعُ السيّد المسيح عليه السّلام من بعده إلى الاضطهاد البالغ الذي أدّى إلى تحوّل الدّعوة المسيحية إلى دعوةٍ سرّيّة، فاختلفى الكثيرُ من دعاةها، وتستروا في أقاليم مختلفة، وأخفوا معهم نُسخَ الأناجيل، بل دوّنوا الأناجيلَ آنذاك، وكتبوها بلغاتهم الخاصّة، وظلّوا يتناقلون نسخها سرّاً، إذ كانت تتعرّض للحرق والمصادرة من قبل الرّوم، وكان الدّاخِلُ الجديد في دينهم يأخذ عنهم التّعالم مشافهةً بعد ترجمتها إلى لغته الدّارجة، ثم يبيّنها في بني قومه سرّاً، أيضاً، فإذا أشكل عليهم أمرٌ رجعوا إلى الدّاعية الذي يملك نسخةً

لأحد الأناجيل، فبيّن لهم رأي الإنجيل أو رأيه الخاصّ في ذلك الأمر، ولم يكن الدّعاة يسمحون للأتباع بتمليك النّسخ أو يُطلعونهم عليها خشيةً على أنفسهم وعلى الكتب أيضاً، بالإضافة إلى كون عقليّة الأتباع وظروف البيئة لم تكن تؤهّلهم للأخذ المباشر أو الاستنباط والاجتهاد الدّاتي، ويزداد الأمر صعوبةً إذا كانوا يجهلون اللّغة التي كتب بها فئة قليلة من النّاس واقتصار حقّ شرحها وتأويلها عليهم وحدهم، فلما انقضت عصور الاضطهاد، واعتنقت الدّولة الرّومانيّة الدّين الكنسي، احتفظ رجال الكنيسة بحقّ قراءة وشرح الكتب المقدّسة عندهم، وأيدّتهم الدّولة في ذلك؛ لتجمّع رعاياها على عقيدة واحدةٍ بإتاحة الفرصة للكنيسة للقضاء على الفرق المنشقة. وقد ورث رجال الكنيسة عن أحبار اليهود صفاتهم الممقوتة من التّعصب الأعمى، واتّباع الهوى واحتكار الرّأي، فظلت مصادر الدّين الكنسي حكرًا

عليهم، لا تقع عليها يدُ لباحثٍ أو ناقدٍ من غير رجال الدين، وكان باستطاعة الكنيسة أن تفرض كلَّ شيءٍ باسم الإنجيل وهى آمنة من أن أحداً لن يقوم حيالها بأدنى معارضة.

وهكذا ظلت مصادر الدين التصريحي المحرّف قابعةً في خبايا الكنائس وزوايا الأديرة، تؤخذ تعاليمها مشافهةً من أولئك الذين يزعمون القداسة والعصمة، وما دامت مصادر الديانة غيرَ مكشوفة فكيف يعرف الناس مقدار صدق رجال الدين فيما يقولون عن الله؟! وكيف يمكنهم مناقشة الكنيسة فيما تمليه من عقائد وتشريع؟! لم يكن أمامهم إلاّ التسليم المطلق والطّاعة العمياء.

وإذ قد اطمأنت الكنيسةُ إلى أنّ أحداً لن ينبس بينتِ شفة يمسّ قداستها وصواب آرائها، فقد اشتطت وغلّت في

فرض سلطانها وتعميق هيبتها ووجدت الباب مفتوحاً إلى
طغيان لا يلين ولا يرحم^(١).

ولم تدع الكنيسة جانباً من جوانب الحياة دون أن
تمسكه بيدٍ من حديد، وتغلّه بقيودها العاتية، فهيمت على
المجتمع من كل نواحيه الدينيّة والسّياسيّة والاقتصاديّة
والعلميّة، وفرضت على عقول النّاس وأمواهم، وتصرفاتهم
وصاية لا نظير لها البتة، ويتمثّل هذا الطّغيان فيما يلي :

أ) الطّغيان الدّيني :

منذ أن ظهر إلى الوجود ما يسمّى المسيحيّة الرسميّة في
مجمع نيقية (٣٢٥م) والكنيسة تمارس الطّغيان الدّيني
والإرهاب في أبشع صوره، ففرضت بطغيانها هذا عقيدة

(١) الحوالي: العُلَمائيّة، (ص ١٢٥-١٢٦).

التثليت قهراً، وحرّمت ولعنت مخالفيها، بل سفكت دماء
من ظفرت به من الموحّدين، وأذقتهم صنوف التعذيب
وألوان النّكال، ونصبت نفسها عن طريق الجامع المقدّسة
"إلهاً" يحلّ ويحرّم، ينسخ ويضيف، وليس لأحدٍ حقّ
الاعتراض، أو على الأقلّ حقّ إبداء الرّأي، كائناً من كان،
وإلا فالحرمان مصيره، واللّعة عقوبته؛ لأنه كافر "مُهرطِق".

كان الختان واجباً فأصبح حراماً، وكانت الميّنة محرّمةً
فأصبحت مباحة، وكانت التّمائيل شركاً ووثنية فأصبحت
تعبيراً عن التقوى، وكان زواج رجال الدّين حلالاً فأصبح
محظوراً، وكان أخذ الأموال من الأتباع منكراً فأصبحت
الضّرائب الكنسية فرضاً لازماً، وأمور كثيرة نقلتها الجامع من

الحلّ إلى الحرمة أو العكس دون أن يكون لديها من الله سلطان، أو ترى في ذلك حرجاً»^(١).

«وعزّزت الكنيسة سلطتها الدّينية الطّاغية بادّعاء حقوق لا يملكها إلاّ الله، مثل حقّ العُفْران، وحقّ الحرمان، وحقّ التّحلّة»^(٢)، ولم تتردّد في استعمال هذه الحقوق واستغلالها»^(٣).

ب) الطّغيان السّيّاسي :

لقد ظلّت النّفسيّة الأوروبيّة تُعاني تمزُّقاً رهيباً ما تزال آثاره ممتدّة إلى اليوم بسبب الصّراع المزمّن الذي دار بين

(١) الحوالم: العُلْمانيّة، (ص١٢٨).

(٢) التّحلّة : حقّ خاص يبيح للكنيسة أن تخرج عن تعاليم الدّين، وتتخلّى عن الالتزام بما متى اقتضت المصلحة ذلك.

(٣) الحوالم: العُلْمانيّة، (ص١٢٩).

الكنيسة وبين الملوك، والمنافسة الشديدة بين الطرفين للقبض على مقاليد المجتمع، وكسب ولاء الأفراد.

ولم تكن الحرب بين أتباع البابوات وأنصار الأباطرة أو "الجوالف والجبليين" - كما يعرفهم التاريخ الأوروبي - إلا حرباً بين حزبين متناحرين لا يكاد أحدهما يتميز عن الآخر إلا في الشعارات التي يخفي تحتها مطامعه الدنيوية البحتة.

كان ملوك أوروبا يَضيقون ذرعاً بتدخل الكنيسة المتعنت في كل شئوهم، ذلك التدخل الذي لا يجدون له مسوّغاً على الإطلاق، وفي نظرهم لم يكن لرجال الدين عليهم ميزة إلا "القداسة" ومع ذلك فهم أيضاً "مقدسون"، إن لم يكن بأنفسهم فَبِنَسَبِهِمْ^(١).

(١) الحوالي، العَلَمَائِيَّة، (ص ١٣٤).

«وليس ثمة شك في أنّ النَّصر ظلَّ حليفَ الكنيسة طيلة القرون الوسطى، بسبب سُلطتها الرّوحية البالغة، وهيكلها التنظيمي الدقيق واستبدادها المطلق، ولذلك فقد كان البابوات هم الذين يتولّون تتويج الملوك والأباطرة، كما كان في إمكانهم خلع الملوك وعزلهم بإرادتهم المحضة، ولم يكن باستطاعة أحد الانفلات من ذلك، ومن رفض الرضوخ فإنَّ حكمه غير شرعيٍّ، ومن حقّ البابوية أن تُعلن الحرب الصليبية عليه وتحرم أمته»^(١).

ج) الطغيان الماليّ:

لقد شدّدت الكنيسة جدًّا حتى حرّمت ما أحل الله من الطيبات واقتبست النظرية البوذية التّشاؤمية للحياة الدّنيا ...

(١) الحوالي: العُلَمائية، (ص ١٣٦).

وفي الوقت ذاته كانت سيرتها الذاتية صفحة مخزية من التهلك على الدنيا وامتصاص دماء الأتباع بما لا يضارعها فيه أثرياء اليهود وكبار الملاك الإقطاعيين الذين تُسميهم الكنيسة الدنيويين.

وتتمثل مظاهر الطغيان الكنسي في هذا المجال فيما

يلي:

(١) في الأملاك الإقطاعية.

(٢) في الأوقاف المتمثلة في المساحات الشائعة من الأراضي الزراعية باعتبارها أوقافاً للكنيسة، مما أدى إلى اتّهامهم من قبل بعض المتشدّدين بأنهم أصبحوا أتباع قياصرة لا أتباع الله.

٣) العُشور : وهي عبارة عن ضرائب مضروبة على جميع أتباع الكنيسة من الفلاحين والمهنيّين وأرباب الحِرْف^(١).

ثانياً: الصّراع بين الكنيسة والعلم:

لقد قام الصّراعُ بين الكنيسة والحقائق العلميّة على أشدّه، ووقفت الكنيسة مع الجهل ضدّ العلم، ومع الخرافة ضدّ الفكر، ومع الاستبداد ضدّ الحرّيّة، وكانت الكنيسة هي المصدر الوحيد للمعرفة، فلمّا ظهرت بعضُ الحقائق العلميّة التي تخالف ما تقرّره الكنيسة كنظريّة نيكولاس كوبرنيكوس (Nicolaus Copernicus) (١٥٤٣م) الفلكيّة، ومن بعده (جوردانو برونو) (١٦٠٠م) (Giordano Bruno) وغيرها

(١) انظر : الحوالي: العُلَمانيّة (ص ١٤٠-١٤٣).

من النظريات حصل الصّراع بين الكنيسة وبين العلم^(١)، ومن هنا اصطدمت حقائق العلم بزيوف الكنيسة؛ فقامت الكنيسة بالقبض عليهم، وتعذيبهم، ومحاربة أفكارهم. وقد اتّهمت الكنيسة علماء في ذلك العصر بالهرطقة والخروج عن الدّين، وشكّلت لهم محاكم التفتيش، من مثل :

● كوبرنيكوس *Copernicus*: نشر سنة ١٥٤٣م كتاب (حركات الأجرام السماوية) وقد حرمت الكنيسة هذا الكتاب.

(١) انظر : الأبحاث والدّراسات العلميّة التي ظهرت نتائجها مخالفةً لتعاليم المسيحيّة وأعلام هذه الأبحاث، في : النّحوي، عدنان علي رضا: المسلمون بين العُلَمائيّة وحقوق الإنسان الوضعية، دار النّحوي، ط. الأولى ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، السعودية، ص ٣٧ فما بعدها).

● جوردانو *Giordano*: صنع التلسكوب، فُعذب
عذاباً شديداً، وعمره سبعون سنة، وأُعدم حرقاً سنة
١٦٤٢م.

● سبينوزا *Spinoza*: صاحب مدرسة النقد التاريخي،
وقد كان مصيره الموت مسلولاً سنة ١٦٧٧م.

● جون لوك *John Locke* طالبٌ بإخضاع للعقل عند
التعارض، وتوفي ١٧٠٤م^(١).

ومن ثمّ نشأت الفكرة القائلة: إنّ العلم لا صلة له
بالدّين، وإنّ الدّين يحارب العلم.

(١) مجموعة من الباحثين : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب
المعاصرة، دار الندوة العالمية، ط. الثالثة، ١٤١٨هـ، الرياض، (٦٩٠/٢).

«والسبب الحقيقي وراء هذا الصّراع يمكن إدراكه بسهولة لو أنّ الإنسان الغربي تخلّى عن غروره وتبجّحه، ونظر إلى المشكلة نظرةً تقييميّةً مجردة، وذلك أنّ أيّ خصمين يملك كلٌّ منهما نصفَ الحقيقة لا يمكن أن ينتصر أحدهما على الآخر انتصاراً نهائياً.

وبتطبيق هذه البدهيّة على الصّراع بين العلم والدين الأوروبيّين، نجد أنّ المواقع التي احتلّها العلم من مناطق نفوذ الدين هي - في الحقيقة - المواقع التي انتصر فيها العقل واليقين على الخرافة والوهم، كما أنّ المواقع التي صمد فيها الدين أمام الهجوم العلميّ الكاسح هي المواقع التي انتصرت فيها الحقيقة الموحاة على التّخرصات والأهواء.

وحينئذ نستطيع أن نقول مطمئنّين: إنّ الحقّ في كلّ من الطّرفين هو الذي انتصر - أو سينتصر - على الباطل في

كِلَيْهِمَا، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ الدِّينَ الأوروپِيَّ حَقًّا خالصاً والعلمُ الأوروپِيَّ يقيناً مجرداً لما حدثت معركةٌ على الإطلاق.

وبما أَنَّ الدِّينَ بصبغته الإلهية النقية لم يدخل المعركة، فإنَّ الأوفق أن نسمي ما حدث في الغرب صراعاً بين الكنيسة والعلم، وليس بين الدِّين والعلم»^(١).

ثالثاً : الثورة الفرنسية:

كان المجتمع الأوروپِيَّ بما فيه المجتمع الفرنسي مجتمعاً يعيش في ظلِّ حكمٍ استبداديٍّ ما تَمَّ إلا الظلم والاستبداد يقوم به رجال الدِّين أو كبار القساوسة مع طبقات الأغنياء والأشراف، ولما عيّل صبرُ الشعب وأهكته الجماعةُ والبؤس كان هناك طبقتان تترنَّحان في أعطاف التَّعيم وتنغمسان في

(١) الحوالي، العُلَمائيَّة (ص ١٤٥-١٤٦).

مختلف الملاذ هما: طبقة رجال الدين، وطبقة الأشراف، بالإضافة إلى الأسرة المالكة التي كانت عبئاً ثقيلاً على الجميع^(١).

ومع قوّة الإقطاع والاستبداد ظهرت الثورة على الظلم والبعي في فرنسا عام (١٧٨٩م) واستمرت الثورة نحوًا من عشرة أعوام، ذهب عامّة الناس إلى الشوارع والطرق، وفتحوا السجون، وقتلوا الملوك النبلاء ومن يؤيدهم، واتجهوا إلى نهب أملاكهم، والجيش يؤيدهم، بل يعمل بعملهم. ودعوا إلى الإخاء والحرية والمساواة، وألغوا الملكية ونحو دينهم المحرف عن التصرف في ملكهم وسياستهم، ووضعت الثورة وثيقة حقوق الإنسان وفيها (يولد الناس أحرارا ومتساويين

(١) الحوالي، العُلَمائيّة (ص ١٦٨).

في الحقوق^(١)...»^(٢). إلى آخر ما أفرزته هذه الثورة من حقوقٍ
وتعهدات...

كان هناك عاملٌ آخر خفيّ خَطَفَ الثَّوْرَةَ واستغلَّها
استغلالاً سيِّئاً وأبعدها غاية البعد عن أهدافها الحقيقيَّة وهي
محاربة الظُّلم والبغي والاستبداد، ودفعها إلى محاربة الدِّين
نفسه، وإن كان ديناً محرِّفاً مملوءاً بأهواء القساوسة وشهوات
الرَّهبان، لكن بإمكان أوروبا المسيحيَّة أن تسعى لخلاص
نفسها من الظُّلم والاستبداد مع المحافظة على روح تديّنها

(١) هذا ما قرره الإسلام وناداهم به من قبل ، وهو ما قاله عمر بن الخطاب : «متى استعبدتم الناس وقد ولدتمهم أمهاتهم أحراراً».

(٢) الطريفي، عبد العزيز بن مرزوق : العقلية الليبرالية في رصف العقل، ووصف النقل، مكتبة دار المنهاج، ط. الرابعة، ١٤٣٤ هـ، (ص٧٧).

والتّمسّك بتقاليدها، لكن ذلك العامل حوّل خطّ سير
الثّورة.

لقد نمت الدّعاية اليهوديّة والنّشاط اليهودي في أوروبا
في القرنين السّابع والثّامن عشر، وزاد نموّه بشكلٍ كبيرٍ في
القرن التّاسع عشر ، فاستطاعوا بذلك أن يغرسوا في أوروبا
وأمریکا أفكار الإلحاد والانحلال، فاحتلّوا مراكز رئيسة في
دول أوروبا ، وظهر علماء من اليهود يحوّرون العلم إلى صورة
علمانيّة الحاديّة، مثل داروين *Darwin*، وفرويد *Freud*
ودوركهايم *Durkhiem* وكثير غيرهم^(١).

«وفي القرن الثامن عشر كانوا عنصراً رئيساً في التّخطيط
لثّورة الفرنسيّة ، فجنوا مكاسب قبل الثّورة وخلالها وبعدها

(١) النحوي: المسلمون بين العُلَمانيّة وحقوق الإنسان الوضعية، (ص ٤٠).

حتى أصبح لهم نفوذٌ مسيطرٌ كبيرٌ في فرنسا في معظم ميادين حياتها ، وخاصةً الاقتصادية والأخلاقية مما سهّل لهم الطريق لترسيخ الفكر العلماني في فرنسا وغيرها^(١).

«واستطاع اليهود أن يجنوا الثمرات لأنفسهم على حساب آلام الشعوب، والدّماء التي أهرقت من جرائها، واستطاعوا أن يظلّوا في الخفاء بعيداً عن الأضواء، وأن يزوروا كثيراً من الحقائق التاريخية لسِتْر مكائدهم وغاياتهم»^(٢).

وتمخّضت الثورة عن نتائج بالغة الأهمية، فقد ولّدت لأول مرّة في تاريخ أوروبا المسيحية دولةً جمهوريّة لا دينيّة، تقوم فلسفتها على:

(١) النحوي، المصدر السابق (ص ٣٩).

(٢) الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة: كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، دار القلم، ط. الثالثة، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، دمشق، (ص ٦).

- الحكم باسم الشعب "وليس باسم الله".
- وعلى حرية التدين بدلاً من الكثرة.
- وعلى الحرية الشخصية بدلاً من التقيّد بالأخلاق الدينية.
- وعلى دستورٍ وضعيٍّ بدلاً من قرارات الكنيسة^(١).

(١) الحوالي، العَلَمائِيَّة (ص ١٦٩).

العُلْمانيَّة في العالم الإسلامي: الأسباب والآثار

أولاً : أسباب تسرب العُلْمانيَّة إلى العالم الإسلامي

كما أن العُلْمانيَّة ظهرت في أوروبا نتيجة لانحرافها عن الدين الصحيح والمنهج الرباني، فقد ظهرت العُلْمانيَّة كذلك في العالم الإسلامي نتيجة لهذا الانحراف مضموماً إلى أسباب أخرى تتبعه، ويمكن تقسيم هذه الأسباب إلى أسباب داخلية ، وأخرى خارجية:

(أ) الأسباب الداخليَّة:

أمَّا الأسباب الداخليَّة فيمكن إجمالها كالآتي :

(١) انحرافُ الأُمَّة الإسلاميَّة عن تعاليم الإسلام:

إنَّ معظم المسلمين حكَّامًا ومحكومين ، هجروا إسلامهم ، وتهاونوا في تطبيق أحكامه، وأخذوا إلى الدَّعة والرَّاحة، وتعلقوا بالدُّنيا وشهواتها، وتنازَعوا عليها، وتفرَّقوا إلى

فرق وأحزاب، ودول متصارعة متخالفة، مما أطمع أعداءهم فيهم، ووجهوا لهم جيوش القتال للسيطرة عليهم، وإسقاط سلطانتهم، وتحطيم قواهم، وسلب ما يملكون من أرضٍ ومالٍ، وطاقات بشرية، وتسخيرهم في الأعمال كالعبيد، ووجهوا لهم جيوش الفتنة والإفساد، لسلبهم ذاتيتهم العظيمة، القائمة على الإسلام إيماناً وخلقا وعملاً^(١).

فالحديث عن تأخر الأمة الإسلامية وانحطاطها في القرون المتأخرة طويل ، ولكن سمته البارزة هي هذا الانحراف عن فهم الإسلام نفسه، وانحساره في مفاهيم ضيقة، وهو نتيجة للوهن الذي أصاب الأمة وحب الدنيا الذي ابتليت

(١) الميداني: كواشف زيوف (ص ٩٢).

به، وهو سببٌ لما تلاه من أحداثٍ جسامٍ، ومخاطرٍ جمّةٍ، اجتاحت الأمة الإسلاميّة، من ذلك:

أ) الركود العلميّ المهيم على الحياة الإسلاميّة في وقتٍ كانت أوروبا قد خطّت الخطى عن طريق العلم والاكتشاف مما جعل البلاد الإسلاميّة لقمةً سائغةً للكفار يلتهمونها قطعةً قطعةً، ولقد كانت هزيمةُ العثمانيين في (سان جُونار)^(١)، وتقهر المماليك السّريع أمام نابليون مؤشراً واضحاً على هذين - أي: الركود العلميّ والضعف المادّي

(١) حرب قامت في سنة ١٠٧٤م/١٦٦٣م بين الدولة العثمانيّة، وإمبراطوريّة النمسا مع حلفائهم من الفرنسيّين والألمانيّين. و(سان جُونار)، اسمٌ للكنيسة التي دارتُ بقربها المعركة. انظر: محمّد فريد بك الحامي: تاريخ الدّولة العليّة العثمانيّة، دار الجيل، ط. ١٣٧٩هـ/١٩٧٧م، بيروت، (ص ١٣٣-١٣٤).

والمعنوي- وبداية خطوة لنهاية الرّعاة الإسلاميّة ليس على العالم بل على أرض الإسلام^(١).

ب) تفوّق الكفّار علمياً وعسكرياً والحدّ الصليبيّ الأعمى الذي بثّ سراياه الفكرية المضلّة جنباً إلى جنب مع السرايا الاستعماريّة كلّ ذلك شكّل عاملاً كبيراً لانحراف الأمة عن منهجها القويم وهجران تعاليم دينها الحنيف.

٢) فشوّ الجهل بين المسلمين في مختلف بقاع العالم الإسلاميّ:

وبخاصّة في القرون المتأخّرة، قرون الانحطاط، بعد أن كانت الأمة الإسلاميّة تتبوأ مكانة عظيمة في ركب الحضارة

(١) الحوالي، المصدر السابق (ص ٥٠٨).

الإنسانيّة، بل كانوا قادةً لهذا الرّكب الإنسانيّ إلى كلّ تقدّمٍ
صحيحٍ فكريٍّ وعلميٍّ.

وما هذا إلا نتاج السّبب الأوّل الذي هو بُعد المسلمين
عن الفهم الصحيح للإسلام، وتعلّقهم بمتاع الدّنيا وحطامها
وملذّاتها، «فأمسى الإسلام لدى كثيرٍ من المسلمين إسلامًا
تقليديًّا موروثًا يشبه الجبريّة النّسيّة، لا انتماءً إراديًّا اختياريًّا
قائمًا على الاقتناع الناتج عن بصيرةٍ علميّةٍ كما كان يوم
ظهور الإسلام، ومن الطّبيعي أن يكون فشوّ الجهل بالدّين
وبالمعارف الحقّة في مختلف مجالات العلم منّا ملامًا
لتسلّل الأفكار الباطلة المموّهة بزخارفٍ كاذباتٍ تخدع
الناظرين وتفتن الجاهلين»^(١).

(١) الميداني: كواشف زبوف، (ص ٩٣).

٣) تسرّب شوائب ومفاهيم خاطئة:

لقد تسرّبت إلى الأمة مفاهيم خاطئة عن الإسلام، اعتبروها ديناً وعقيدةً، وراحوا رواءها لا يلبون على شيء، وانتكسوا في وحل الباطل وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، فانشغلوا بالأضرحة والقُبور ولازموا الزوايا والتكايا، وردّدوا أورااد المشايخ وهو عاطلون عن العمل، وعن العلم الشرعي، وقد غسل المشايخ أدمغة أتباعهم فصدّقوا كلّ مستحيل، وآمنوا بما يقول الشيخ العتيد، فكانت تربيتهم للأتباع في الغالب تربيةً ذليلة هزيلة^(١).

(١) انظر: الخالدي، محمد فاروق: التيارات الفكرية والعقدية في النصف الثاني من القرن العشرين في بلاد الشام، دار المعالي، ط. الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، الأردن، (ص٤٩).

«وكان من الأخطاء الأساسية في الفكر الصوّفي النّظرة العدائية إلى الحياة الدّنيا، تلك التي يبدو أنّها متأثرة بالفكر البوذي والفلسفة الإشرافيّة، وحدث أن أقبل العامّة -بقيادة المتصوفين- على الطّقوس والأوراد، وأقبل الحكام ومن في حواشيهم وركابهم على الشّهوات والملذّات!

وهذا الخلط الصّوفي الأحمق يُعتبر أوّل صدع أصاب التّفكير الإسلامي في صميمه، بل أوّل تصدّع أصاب كيان الأمّة الإسلاميّة -فيما بعد- بالانهيار، فقد نتج عن هذا الانفصام انحسار مفهوم العبادة في دائرة الشّعائر والأذكار، بل في الحقيقة كان الالتزام بتلك النّظرة يعني تعدّر القيام ببعض أركان الإسلام لا سيّما الزّكاة...

بعد أن كان المسلم - أيّاً كان عمله الدّنيوي - يستشعر في قرارة نفسه أنّه يعبد الله تعالى، حتى وهو يكدح على عياله، وحتى وهو يطلب العلم أو يعلمه، وحتى وهو

يجوب الأرض في طلب الرزق أو التعرف على المعمورة بلا انفصام أو ازدواجية، أصبح المريد - وقد انحصر مفهوم العبادة لديه في الصلوات والأذكار- يجد مساحةً كبيرةً من حياته فارغةً، فيلجأ إلى الشيخ لتعبئة هذا الفراغ، وعندها يقوم الشيخ بتشريع ما لم يأذن الله به، فيكلّف المريد بحفظ المتون الطويلة من الأوراد لترديدها، بآلاف التّسيّحات، وأحياناً يكلّفه بالسّياحة في الأرض بلا زادٍ، ليقوّي يقينه، ويصدّق في توكّله!! وبذلك أدّى انحسار مفهوم العبادة إلى انحراف العبادة نفسها واستقائها من غير معين الكتاب والسنة»^(١).

(١) الحوالي: العُلَمائيّة، (ص ٥١٥).

٤) قصورُ الفقهاء المتأخّرين عن الاستنباط الفقهي
والتمسك بمبدأ إغلاق باب الاجتهاد:

«إن كَوْنَ الشَّرِيعَةِ الإِسْلَامِيَّةِ مِنْهَجًا كَامِلًا شَامِلًا لِلْحَيَاةِ
البشرية منذ نزولها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها - لا
يُخْرِجُ شَيْءٌ مِنْ أَحْدَاثِهَا وَوَقَائِعِهَا مَهْمَا اسْتَجَدَّ، وَمَهْمَا
تَغَيَّرَتِ الظُّرُوفُ والأَحْوَالُ عَنْ دَائِرَتِهَا الرَّحْبَةِ - هُوَ أَمْرٌ بَدِهِيٌّ
فِي التَّصَوُّرِ الإِسْلَامِيِّ، وَالشُّكُّ فِيهِ يَعْنِي بَدَاهَةً أَتَّهَمُ الْبَارِي -
جَلَّ شَأْنُهُ - بِالنَّقْصِ وَالبَدَاءِ، وَمَنْ تَمَّ فَهُوَ الكُفْرُ المَحْضُ.

وكون الحياة البشرية عُرضَةً لِتَغْيِيرَاتٍ لَا يُدْرِكُ مَدَاهَا أَوْ
وَقَائِعَ حَادِثَةٍ لَا يَسْتَطِيعُ العَقْلُ البَشَرِيُّ عَلَى الإِطْلَاقِ أَنْ
يَتَصَوَّرَ أبعادَها بِحُكْمِ حَاجِبِهِ عَنِ عِلْمِ الغَيْبِ، يَجْعَلُ المَجْتَهِدَ
فِي الشَّرِيعَةِ مَهْمَا كَانَتْ سَعَةُ أَفْقِهِ وَدَقَّةُ نَظَرِهِ يَظَلُّ مَحْصُورًا
بِوَقْعِ بَيْتِهِ، وَوَاقِفًا عِنْدَ النِّقْطَةِ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَيْهَا البَشَرِيَّةُ عَلَى
خَطِّ سِيرِهَا الطَّوِيلِ.

هاتان الحقيقتان آمنت الأمة الإسلاميّة بأولاهما إيماناً
جازماً، وغابت الثانية عن أذهان البعض متأثرين بالواقع
الذي ظلّ قروناً عديدةً راكداً لا جديد فيه.

ومن هذا البعض كان خلفاء وعلماء الدولة العثمانيّة
الذين عارضوا فتح باب الاجتهاد أو قيّدوه في دائرة التّراث
المأثور عن فقهاء الحنفيّة السّابقين، وفي الوقت الذي كان
الفقه فيها جامداً كانت الحياة حسب سنة الله جارية
متطوّرة، وبذلك حدث لأوّل مرّة في تاريخ المسلمين أن
ضاقت دائرة الفقه الواقعي، بل والافتراضي عن الإحاطة
بأحداث الحياة كلّها، وكان الذي ضاق -بطبيعة الحال- هو

فقه المتون والحواشي، ولم تضق الشريعة نفسها، وما كان لها أن تضيق»^(١).

«فحين يتوقف الاجتهاد مع وجود دواعيه ومتطلباته ..

فماذا يحدث؟!

يحدث أحد أمرين: إما أن تجمد الحياة وتتوقف عن النمو؛ لأنها محكومة بقوالب لم تعد تلائمها، وإما أن تخرج على القوالب المصبوبة، وتخرج في ذات الوقت من ظل الشريعة؛ لأن هذا الظل لم يمدد - بالاجتهاد - حتى يغطيها. وقد حدث الأمران معاً، الواحد تلوى الآخر، الجمود أولاً ثم الخروج بعد ذلك عن دائرة الشريعة»^(٢).

(١) الحوالي، المصدر السابق (ص ٥١٢-٥١٣).

(٢) محمد قطب: واقعا المعاصر، مؤسسة المدينة للصحافة، ط. الثانية

١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م، السعودية، (ص ١٥٩).

وهذه بعض العوامل الداخليّة التي ساعدت بشكلٍ أو بآخر على تسرّب الاتجاه العلماني داخل البلاد الإسلاميّة ، وهيئات له مناخًا واسعًا لقبوله والرضا به .

ب) الأسباب الخارجيّة:

أمّا الأسباب الخارجيّة لدخول العُلَمانيّة في البلاد الإسلاميّة فهي كثيرة، وتكمن في سببين رئيسين:

الأوّل : الاستعمار الغربيّ:

في بداية منتصف القرن التاسع عشر - وعلى التّحديد في سنة ١٨٥٧م:

■ تمّ للإنجليز الاستيلاء على الهند سياسيًا ، وانتقل الحكمُ رسميًا من شركة الهند الشرقيّة (التي تأسست في ٣١ ديسمبر ١٦٠٠م والتي انضمت إلى شركة أخرى جديدة في سنة ١٦٨٩م) إلى التّاج البريطانيّ، وزالت بذلك إحدى

الدّول الإسلاميّة الكبرى التي قامت في مستهلّ القرن السادس عشر الميلادي، وهي دولة المغول في الهند أو الدّولة التّيموريّة (نسبة إلى تيمورلنك) مؤسس هذه الأمبراطوريّة الإسلاميّة في آسيا الوسطى. أمّا الدولتان الأخريان إذ ذاك، فهما الدّولة الصفويّة في إيران، ودولة الأتراك العثمانيّين في آسيا الصّغرى وشرق أوروبا.

■ كما تمّ في السنّة نفسها - وهو سنة ١٨٥٧م - استيلاء الفرنسيّين على الجزائر كلّها إلى الصّحراء، بعد أن ابتدأوا غزوها سنة ١٨٣٠م.

■ ومن قبل هاتين الدّولتين الاستعماريّتين - انجلترا وفرنسا - احتلت هولندا في بداية القرن السّابع عشر جزر الهند الشّرقية (أندونيسيا)، عن طريق شركة الهند الهولنديّة التي تأسّست في سنة ١٦٠٢م، وذلك بعد ما ضاع استقلال البرتغال بإعلان ملك أسبانيا ضمّها إلى بلاده في

سنة ١٥٨٠م، تلك الدولة التي عبّدت طريق الاستعمار
المسيحي في وسط آسيا وشرقها في الهند وفي أندونيسيا سنة
١٥١١هـ والتي حصل ملكها من البابا اسكندر على صكّ
رسميٍّ بأنّ البرتغال (سيّدة بحار العرب والعجم والهند
والحبشة)!!

فبعد قرنين ونصف، أي منذ بداية القرن السابع عشر
الميلادي إلى النّصف الثاني من القرن التّاسع عشر، تمكّن
الاستعمارُ الغربيُّ المسيحيُّ من السيطرة سيطرةً تامّةً على
المسلمين في وسط آسيا وشرقها، واتّخذ له نقطة ارتكازٍ
رئيسيّة في إفريقيا، كما تمكّن من مدّ نفوذه إلى قلب العالم
الإسلامي ومركزه الرّسمي في منطقة الشّرق الأدنى، وبذلك
طوّق العالم الإسلاميّ من الشّرق والغرب، وسلّط ألعبيه
ودسائسه على بقيّة التّجمعات الإسلاميّة الأخرى بين هذين
الطرفين، فوهنت هذه التّجمعات وانحلّ عقدها، وسقط

بعضها إثرَ بعضٍ تحت نفوذِ المستعمرِ الغربيِّ، وما جاءت الحربُ العالميَّة الأولى وانقضتْ أجلُّها حتى أصبح العالم الإسلاميُّ كلُّه تحت نفوذ هذا المستعمرِ^(١)!

الثاني : التَّخطيطُ اليهوديِّ الصليبيِّ.

«لقد تلا الحروبَ الصليبيَّة تصفيَّة الوجود الإسلامي في الأندلس بصفةٍ لا نظير لها في التاريخ، ثمَّ كان سقوط القسطنطينيَّة في أيدي المسلمين حادثاً رهيباً أذهب عن أوروبا حلاوة انتصارها في الأندلس، وبعدها جاءت طلائعُ الحروب الصليبيَّة متخفيَّة برايات المكتشفين الجغرافيين، ثمَّ جاءت الرُّوح الصليبيَّة كامنةً في مدافع نابليون، التي تضعنا

(١) البهي، محمد: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، دار الفكر، ط. السادسة ١٩٧٣م، بيروت، (ص ٢٩-٣٠).

على أوّل محاولة ضخمة من أوروبا الحديثة لاستئصال شأفة الإسلام وبذر جذور اللادينية في أبنائه»^(١).

كانت خطّة الحروب الصليبية الاستعماريّة تقوم على هدف القضاء على الإسلام، ولكن بواسطة احتلال أراضيه احتلالاً مباشراً، وقد كان هناك تفكير ذكي اتّعظ بالهزائم العسكريّة المتلاحقة التي مُني بها الغرب ، ونقب عن السّر العظيم لصلابة المسلمين وانتفاضتهم المفاجئة ووجد السّر فعلاً إنّهُ الإسلام نفسه، ولا شيء سواه، فوضعوا خطّةً لا تقوم على أساس إبادة المسلمين ولا على احتلال أراضيه، وإنما تقوم على إبادة الإسلام نفسه واقتلعه من نفوس أبنائه وضمائرهم، أو تقليص دائرته وعزله عن واقع الحياة.

(١) الحوالي: العُلَمائيّة، (ص ٥٣٠).

«وإذ تحول الصِّراع من حرب المسلمين إلى حرب العقيدة الإسلامية ذاتها؛ تغيّرت ملامح وجوانب المعركة: لم يعد ميدانها الرئيسي الأرض، ولكنّه الأدمغة، ولم تعد وسيلتها الوحيدة السيف بل الفكر، ولم تعد جيوشها الأساطيل والفرق، ولكنّها المؤسّسات والمناهج بالدرجة الأولى»^(١).

وعلى هذا عمل المستعمر الصليبي على أمورٍ منها :

(١) الاعتماد على المستشرقين:

ظهر المستشرقون في حلبة الصِّراع بقوة كان المسلمون يعانون فيها من الإفلاس الحضاريّ، والخواء الروحيّ، وفقدان الذات، أتاح لهم الفرصة لبثّ سمومهم والثَّار لماضيهم البئيس.

(١) الحوالي: المصدر السابق (ص ٥٣٥).

وقد خلَعوا عن أنفسهم سُوحَ الرهبان والأخبار، وارتدوا لباسَ العلم وسُوحَ المعرفة، ثمَّ جَنَدوا آلافَ المخطوطات، ومئاتِ المؤسَّساتِ الثقافيَّةِ المختلفةِ لمعركةِ استئصالِ الإسلامِ من دياره، وقد أدركوا أنَّ ذلك لا يتمُّ إلَّا بسلبِ الأُمَّةِ ذاكرتها الممتلئة في تراثها العظيم ثمَّ شَنَّ حربَ نفسيَّةٍ وشرسةٍ لإبادة ما لا يزال عالِّقًا في أذهان المسلمين من عقائد الإسلام، ومفاهيمه، وإن لم تكن الإبادةُ التَّامةُ فلتكن الرِّزعة والتَّشكيك.

وتتلخص جهودهم في النُّقاط التَّالية^(١):

■ الطَّعن في حقيقة الإسلام أو القرآن والنُّبوة.

(١) ينظر تفاصيل هذه النُّقاط في: العُلَمانيَّة، للحوالي، (ص ٥٤٤-٥٥١).

■ دعوى أنّ الإسلام استنفذ أغراضه، ولم يعد له دورٌ في الحياة البشريّة.

■ دعوى أنّ الإسلام طقوسٌ وشعائرٌ روحيّة، لا دخل له في شؤون الحياة الأخرى.

■ القول بأنّ الفقه الإسلاميّ مأخوذٌ من القانون الرّوميّ.

■ الادّعاء بأنّ الشريعة الإسلاميّة لا تتلائم مع الحضارة.

■ الدّعوة إلى نبد اللّغة العربيّة وهجر حُرُوفها وأساليبها.

■ إثارة ما يسمى ب(قضيّة تحرير المرأة).

■ التّهوين من شأن الحضارة الإسلاميّة وتشويه تاريخها.

■ بعث الحركات الهدّامة والطوائف الضّالة وتضخيم أدوارها.

■ نبش الحضارات القديمة وإحياء معارفها.

■ وضع منهج لاديني للبحث العلمي.

٢) اصطناع العملاء في أبناء المسلمين :

كان من النصائح التي قدمها (زويمر) المشترك للمبشرين النصارى قوله : «تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسولٍ من أنفسهم ومن بين صُفوفهم؛ لأنَّ الشجرة يجب أن يقطعها أحدُ أعضائها»^(١)..

وقد نُفّدت هذه الوصية في البلاد الإسلاميّة، واستطاع المستعمرون أن يُكوّنوا من العناصر الضعيفة الإيمان قُوَى منظمة تربيّت على عين الاستعمار وسمعه، وحُشيت أذهانها

(١) لوشاتليه، الفريد : الغارة على العالم الإسلامي، لخصه ونقله إلى العربية، مساعد اليافي، محب الدين الخطيب، منشورات العصر الحديث، ط. الثانية ١٣٨٧هـ، جلد٥، (ص ٨٠).

بما أملاه أعداء الإسلام، وظلّ الشّعور بالتقصّ والتّبعيّة للغرب هو إحساسهم الدّائم.

وقد اختار المستعمر أفرادًا من هذه القوى صنع حولهم هالاتٍ من الأجداد، وأحاطهم ببطولاتٍ وهميّةٍ حتى خُيِّلَ إلى الشّعب المسكين أنّ على أيدي هؤلاء مفاتيح النهضة وبناء المجد والحضارة، فطأطأت لهم الرّؤوس حتى تمكّنوا من رقاب الأُمّة فأذاقوها من الويل والدّلّ ما تُلنه على أيدٍ المستعمر نفسه.

«وليس أدلّ على ذلك من أنّ القوى التي حكمت العالم الإسلامي بعد رحيل الاستعمار لم تكن الحركات الجهاديّة التي جابحت المستعمرين، بل كانت أحزاباً وقوى مشبوهة تشهد أعمالها وآثارها بأنّها جنت على الأُمّة ما لم يجنّه الأعداء السّافرون، مما يُعطي الدّلّيل الواضح على أنّ تنفيذ

المخطّط اليهودي قد وكل إليهم، مع اختلاف في الأدوار، وتنوّع في الإخراج»^(١).

٣) البعثات العلميّة إلى الغرب:

اتّخذ الغرب المستعمر الزّاحف التّعليم والتّربية وسيلته الأولى في التّأثير والتّغيير الذي ينشده، وقد ركّز نشاطه في هذا الجانب على كلّ الجهات والمستويات سالكاً إلى غايته طُرُقاً شتّى، منها: البعثات إلى الغرب، وهم الطّلاب الذين يوفدون في بعثات إلى ديار الغرب، ليحصلوا العلوم الأوروبيّة - الحديثة فيما يزعمون، والتي اقتبسوا جذوتها الأولى من المسلمين في الأندلس وغيرها، وقد حرص المستعمر المتحكّم على أن يجعل أكثرية المبعوثين إلى دياره يدرسون الآداب

(١) الحوالي، العُلَمائيّة (ص ٥٤٢-٥٤٣).

والفنون والعلوم الاجتماعية؛ لأنها هي التي تصنع للإنسان أفكاره وقيمه وموازينه، وذوقه واتجاهه وسلوكه، هذا مع أن الذي كانت تحتاج إليه البلاد في ذلك الحين - قبل كل شيء - هو العلوم المحضة والعلوم التطبيقية التي يترتب على التفوق فيها الرقي الصناعي، والنمو العمراني، والتقدم العسكري، والازدهار الاقتصادي، ولكن المستعمرين الماكرين أصرّوا على أن يحتكروا هم هذا الجانب المهم لتظلّ البلاد في حاجة دائمة إلى خبراتهم ومعوناتهم، ولتظلّ سوقاً مفتوحاً لبضائعهم ومصنوعاتهم، فتؤخذ منها (المواد الخام) بأبخس الأثمان، ثم تُرد إليها سلعاً تباع بأعلى الأسعار.

ولا غرو إذا رأينا هؤلاء المبعوثين إلى الغرب، يذهبون إليه شرقيين مسلمين ويعودون - إلا من عصم الله - متغربيين "علمانيين" "لا دينيين" لم يغيروا أسماءهم ولا دينهم الرسمي، ولكنهم غيروا أفكارهم وقيمهم، ونظرتهم إلى الدين وإلى

الحياة وإلى الناس، وإلى الماضي وإلى الحاضر، وإلى النظم والشرائع وإلى الآداب والتقاليد، وبدا ذلك واضحاً في سلوكهم وأخلاقهم وعلاقاتهم ، وفيما يكتبون وينتجون في ميدان الفكر والثقافة والتّوجيه^(١).

٤) المدارس التبشيرية والأجنبية:

هي التي كان الاستعمار يربعاها رعاية الأب الحاني لولده، ويقدم لها كلّ عونٍ مادّيٍّ وأدبيٍّ، على حين يضيق

(١) القرضاوي، يوسف بن عبد الله: الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، مكتبة وهبة، ط. الخامسة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، القاهرة، (ص ١٨ - ١٩). وللكشف عن دسائس هؤلاء في هذا الدين، فقرأ كتب (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر) و(الإسلام والحضارة الغربية) و(حصوننا مهددة من داخلها) كلها للدكتور محمد محمد حسين رحمه الله ، وكتاب (أعلام وأقزام في ميزان الإسلام) للدكتور سيد حسين العفاني.

الحناق على المدارس والمؤسّسات الوطنيّة ، وخاصة تلك التي تحافظ على عقيدة الأُمَّة وثقافتها وتراثها.

لقد زرع الاستعمارُ في كلّ بلد مئات المدارس التبشيريّة التي تأخذ الطّفّل منذ نعومة أظفاره عجينةً لينةً طيّعةً، فتصوغه كما تريد وتُنشئه كما تهوى، وتُبعده عن الإسلام بقدر ما تقربّه من النصرانيّة، وتحيّبه في حضارة الغرب بقدر ما تُبغضه في حضارة الشرق.

وقد صرّحت المبشرة (آنا ميلجان) عن هدف هذه المدارس وهمتها في بلاد العرب والمسلمين فقالت :

«إنَّ المدارس أقوى قوّة لجعل الناشئين تحت تأثير التّعليم المسيحيّ، وهذا التّأثير يمستمرّ حتّى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوماً قادة أوطانهم»^(١).

٥) هدم العقائد والأفكار :

«لقد صمّم الغرب المسيحي الزّاحف أن يهدم ويدمّر، ولكن بأسلوبٍ غير أسلوب التّار والصّليبيّين القدماء ، لقد اتّجه إلى تدمير العقائد والأفكار، وهدم القيم والأخلاق، وتحطيم الآداب والتّقاليد، بمعاولٍ خفيّة لا تراها الأعيُن بسرعةٍ، ولا تلمسها الأيدي بسهولة، وبأساليبٍ مآكرة لا تُشير الشّعوب، ولا تُغضب الجمهاهر وبهذا نجح في قتل

(١) القرضاوي: الحلول المستوردة (ص ١٩).

الشُّعوب ولكن بغير إطلاق الرِّصاص ، وضرب السيوف، بل بطريقة السمِّ البطيء، بوضع الدِّسم والحلوى»^(١).

٦) صناعة قادة المستقبل يحملون أفكاره وثقافته:

« لم يكن هم المستعمر الدخيل في أوّل الأمر أن يوجه عمله إلى الشعب ليزحزحه عن دينه، ويشكِّكه في منهجه الإلهيِّ، فيهيِّجه على حكمه، ويحرِّضه على مقاومته، بل ترك الشعوب في غفلاتها، ووجه أكبر همّه إلى تكوين قادة للمستقبل، قادة يصطنعهم لنفسه، ويصنعهم على عينه، ويربِّيهم في أحضانها، ويغذيهم بثقافته وأفكاره، ويغرس فيهم

(١) القرضاوي: الحلول المستوردة، (ص ١٦).

الخضوع عن طواعية لنظمه وتقاليده، والتّقدّيس لمناهجه
وفلسفته^(١).

إنّ صناعة هذا الجيل الذي سيقود السّفينة فيما بعد،
ويقبض على زمام التّوجيه والتّثقيف والتّربية والإدارة والسّياسة
والتّشريع، كانت أهمّ ما عُني به الخبيث ، وكان النّجاح في
صناعته أعظم نصرٍ حقّقه في المعركة بينه وبين الشّرق
الإسلامي، منذ عهدِ هرقل ومعركة اليرموك وما بعدها حتّى
اليوم^(٢).

(١) انظر: العقاد، عباس محمود: الإسلام والحضارة الإنسانيّة، المكتبة
العصرية، (بدون تاريخ)، بيروت، (ص ١١٠-١١٥) لتقف على مثل هذه
المحاولات في (نيجيريا) من قبل المستعمر البريطاني التي باءت بالفشل جزئياً
ولم يتمّ له ما أراد كما ينبغي.

(٢) القرضاوي: الحلول المستورة، (ص ١٦).

ثانياً : آثار العَلَمانيَّة في المجتمعات الإسلاميَّة:

لقد خلفت العَلَمانيَّة آثاراً سيئة ونتائج خطيرة على المجتمعات الإسلاميَّة، وهدمت صرحها الدِّينيَّ ، وبناءها الخُلقيَّ، ونسيحها الاجتماعيَّ، وقوّضت نظامها السياسيَّ والتَّشريعيَّ، ونسفت تشريعاتها في المجال الاقتصادي ، وحطّمت بنيتها الفكرية والعلمية، كل ذلك بطرق خبيثة متلوية، وأساليب خداعة، نجمل الحديث عنها في الجوانب التالية :

الأول : الجانب الديني والتشريعي :

تؤمن العَلَمانيَّة بالمادّة، ولا شيء وراء المادّة. ولا مكان للدِّين؛ لأنّه - في نظرها - يعتمد في أصوله على مقوّمات غيبية وخرافية، ولا يوجد شيءٌ مقدّس إلا ما دلّت عليه التجربة، وما عداه محض خرافات. وليس من هم العَلَمانيَّة

التطلع للآخرة، لأنها - كما تزعم - غيبّات أسطوريّة، بل محور العُلَمانيّة المركزي الوحيد هو هذه الحياة الدّنيا، ولهذا السبب عرف بعضهم العُلَمانيّة بالدنيويّة^(١).

وهي كذلك لا ترى المجاهرة بترك العبادات التي هي أركان الإسلام العمليّة شيئاً يوجب المحاسبة أو المؤاخذه أو العقوبة التي أجمع عليها فقهاء الإسلام فيمن يصر على ترك الصلاة، أو منع الزكاة، أو إفطار رمضان، حتى إنهم اتفقوا على تكفير من ترك شيئاً منها استخفافاً بجرمتها، أو إنكاراً لفرضيتها ؛ لإنكاره ما هو معلوم من الدّين بالضرّورة. وهي كذلك لا تعتبر الزكاة التي هي الرّكن المالي الاجتماعي من

(١) انظر : السلاوي، أبو سفيان مصطفى باحو: العُلَمانيّة : المفهوم والأسباب والمظاهر، جريدة السيل، ط. الأولى، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م، المغرب (ص ٥٣-٥٤).

أركان الإسلام - جزءًا من نظامها المالي والاقتصادي والاجتماعي، تُؤخذ من الأغنياء لتُردّ على الفقراء بواسطة (العاملين عليها)، بل تعتبرها عبادةً شخصيّةً من شاء أداها وعليه عبء الضرائب الوضعيّة كاملاً، ومن شاء أعرض عنها ولا خرج عليه ولا ملامة^(١).

أمّا الشيء الذي تقف العُلمانيّة ضده بكلّ صراحة وقوّة فهو الشريعة التي تنظّم بأحكامها الشريعة الإسلاميّة وتضع لها الضوابط الهادية والعاصمة من التخبّط والانحراف، سواء في ذلك ما يتعلق بشؤون الأسرة (الأحوال الشخصية) أو المجتمع أو الدولة في علاقاتها الداخليّة أو الخارجيّة السلميّة أو الحربيّة.

(١) القرضاوي: المصدر السابق (ص ١٠٢).

فقد سعت الدّول الإستعمارية منذ نهوضها لغزو العالم الإسلامي إلى إسقاط تحكيم الشريعة فيها، وإحلال قوانينها محلّها؛ فقد كانت الدّول التي تتقاسم العالم الإسلامي آنذاك ثلاثٌ دول اتّسم كلّ منها بنوعٍ من الانحراف في هذا الجانب، على تفاوتٍ بينها في ذلك، وهذه الدول هي :

الدّولة الصّفويّة: التي انحرفت انحرافاً يكاد يجعل انتسابها إلى الإسلام انتساباً اسمياً فقط، لما كان يجري فيها من التّحاكم إلى أهواء علماء الشّيعة المتعصّبين، وجعلت أكبر همّها آنذاك مهاجمة الدّولة العثمانيّة لا لشيء إلا لكونها دولةً سنيّة.

الدّولة المغوليّة: وهي في أغلب فترات حكمها دولةٌ جاهلة بحقيقة الإسلام، وكان فهمّها للإسلام فهماً مختلطاً بكثير من الخرافات والتّصوّرات الخاطئة.

الدولة العثمانية : فهي - وإن كانت أركى تلك الدول
وأقرب في جملتها من روح الإسلام، وكانت جهودها في نشر
الإسلام وصدّ عدوان الغرب عن العالم الإسلامي جهودًا
مشكورة - فإنها مع ذلك قد استمرت على خطّ الانحراف
الذي ورثته عن أسلافها - بحسن نيّة وبدون وعي - المتمثل
في تطبيق المذهب الحنفي بتعصّب شديد، والاستمرار على
غلق باب الاجتهاد المدعى منذ القرن الرابع الهجري، ثم
معارضة كل الحركات والدّعوات التّجديّة، التي تدعو إلى
نبذ الجمود والانطلاق الفكريّ المستمدّ من الكتاب والسنة
وفهم سلف الأمة، مثل دعوة الشيخ محمّد بن عبد الوهاب
(المتوفى ١٢٠٦هـ)، والعلامة محمّد بن علي الشّوكاني (المتوفى
١٢٥٠هـ) والشيخ محمود شكري الألوسي (المتوفى
١٣٤٢هـ) مما له من النتائج السيئة التي ظهرت في استمرار

الحكم على (طريقة الملك الجبرية)، وقصور الاجتهاد الفقهي المطلوب لمسايرة تطوّرات الحياة البشريّة^(١).

وقد تحدّث (هانوتو) المستشرق الفرنسي ومستشار وزارة الاستعمار الفرنسيّة في مقاله الذي ترجمته جريدة (المؤيد) المصريّة، ونشرته سنة ١٣١٧هـ^(٢)، تحدّث عن عمل المستعمرين على فصل السلطة الدنيّة عن السلطة السياسيّة في مستعمراتهم، فقال:

«إنّ الإسلام دينٌ وسياسة، وإنّ شعور المسلمين مبهم من حيث الجامعة السياسيّة أو الرّابطة الوطنيّة، فالوطن

(١) انظر: الحوالي: العَلَمانيّة (ص ٥٠٩-٥١٥).

(٢) انظر: المقال بكامله في: تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، للسيد محمد رشيد رضا، دار الفضيلة، ط. الثانية ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م (٤٠١/٢-٤٠٣).

عندهم هو الإسلام، وهم يقولون : إنّ السّّلطة مستمدّة من الألوهيّة، فلا يجوز أن يتولّاها إلاّ المسلمون».

ثم أشار (هانوتو) إلى نجاح فرنسا في فصل السّّلطة الدينية عن السّّلطة السياسية في تونس، وقال : «إنها قد استطاعت أن تحقّق هذا الانقلاب العظيم بلباقةٍ وحنق، دون أن تثير ضحيّةً أو تدمراً، فتوطّدت دعائم السّّلطة المدنية من غير أن يلحق بالدين مساس (!) وتسرّبت الأفكار الأوروبيّة بين السكان بدون أن يتألّم منها إيمانُ المحمدي (يعني: المسلم) وبذلك انفصل الحبل بين هذا البلد والبلاد الإسلاميّة الأخرى الشّديدة الاتصال بعضها ببعض».

ودعا (هانوتو) في آخر مقاله إلى أن تُتخذ تونس مثلاً يقاس عليها ونموذجاً ينسج على منواله.

وكان أوّل من استجاب لدعوة (هانوتو) وأمثاله من
الحاقدين على الإسلام هو مصطفى كمال أتاتوك، فقد تبني
الليبرالية الغربية بكلّ حذافيرها بخيرها وشرّها، وحلّوها ومرّها.
وكانت سنة ١٢٥٥هـ هي بداية الانحراف عن الحكم
بالشريعة الإسلامية في العالم الإسلامي عندما أصدر
السلطان عبد المجيد مرسومه القاضي بإدخال الإصلاحات
في القوانين الشرعية المعمول بها آنذاك، وصاحب ذلك من
سوء الفهم وغش التّصور، بالإضافة إلى مرونة مصطلح
(الإصلاح) وسعة مدلوله، كلُّ ذلك أدّى إلى سحق الشريعة
الإسلامية بكاملها تحت شعار (الإصلاح) نفسه، وهو ما

فعله أتارتوك في تركيا المظلة الأخيرة للخلافة الإسلامية على وجه الأرض سنة ١٣٤٣هـ^(١).

ومن هنا خلق مصطفى كمال أتارتوك قانونًا يتكوّن أكثره من القانون السّويسري والقانون الإيطالي وغيرهما وأكمل الباقي من عنده^(٢).

نماذج الاتجاهات العَلَمائيّة في العالم العربي والإسلامي^(٣):

١- في مصر: دخلت (العَلَمائيّة) مصر مع حملة نابليون بوناپرت. وقد أشار إليها الجبرتي في تاريخه - الجزء المخصص للحملة الفرنسية على مصر وأحداثها - بعبارات

(١) انظر : الحوالي: العَلَمائيّة (ص ٥٦٣).

(٢) انظر : الحوالي: المصدر السابق (ص ٥٧١).

(٣) انظر : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب، (٢/٦٩١-٦٩٢).

تدور حول معنى (العَلْمَانِيَّة) وإن لم تذكر اللفظة صراحةً...
وأدخل الخديوي إسماعيل القانون الفرنسي سنة ١٨٨٣م،
وكان هذا الخديوي مفتوناً بالغرب، وكان أمله أن يجعل من
مصر قطعة من أوروبا.

٢- الهند: حتى سنة ١٧٩١م كانت الأحكام وفق
الشريعة الإسلامية، ثم بدأ التدرج من هذا التاريخ لإلغاء
الشريعة بتدبير الإنجليز وانتهت تماماً في أواسط القرن التاسع
عشر.

٣- الجزائر: إلغاء الشريعة الإسلامية عقب الاحتلال
الفرنسي سنة ١٨٣٠م.

٤- تونس: أدخل القانون الفرنسي فيها سنة ١٩٠٦م.

٥- المغرب: أدخل القانون الفرنسي فيها سنة
١٩١٣م.

٦- العراق والشام: ألغيت الشريعة أيام إلغاء الخلافة

العثمانية، وتم تثبيت أقدام الإنجليز والفرنسيين فيهما.

٧- نيجيريا : أقام الشيخ عثمان بن فودي رحمه الله

دولةً صكتو على أساس من الشريعة الإسلامية وظلت تُطبق

بقوة ، حتى جاء الاحتلال البريطاني، وعمل حاكم

الاحتلال (لورد لوغرد) (Lord Lugard) بقوة على تحجيم

دورها وإزاحتها من الحياة السياسية والقضائية للبلاد، وأصدر

قرارته التي تم بها إزاحة الشريعة الإسلامية من شؤون حياة

الأمة، وحصرها فيما يسمى (بالأحوال الشخصية)^(١)

٨- معظم أفريقيا: فيها حكومات نصرانية امتلكت

السلطة بعد رحيل الاستعمار .

(1) Kurawa, Ibrahim Ado, Shari'a and the Press in Nigeria, Islam versus Western Christian Civilization, 2000, Kano, pp. 280-292.

٩- أندونيسيا ومعظم بلاد جنوب شرقي آسيا: دولٌ
عَلَمانيّة.

الثاني : الجانب السياسي :

وأما في الجانب السياسي فنجد من آثار (العَلَمانيّة)
على الحياة السياسيّة أنّها لا تجعل للالتزام بفرائض العبادات
أو إهمالها مكاناً في تقديم النَّاس وتأخيرهم وخصوصاً عند
الترشيح لمناصب القيادة، وجلائل الأعمال على أساس
مقولة خاطئة : هي التّفرة بين السّلوك الشّخصي والسّلوك
الاجتماعي للإنسان، وهو ما لا يقول به الإسلام^(١).

والسياسة اليوم لم تعد تعترف بأيّ نوع من أنواع القيم
والأخلاق، بل هي قائمة على المبدأ الذي رسّخه الميكيفللي

(١) القرضاوي: الإسلام والعَلَمانيّة (ص ١٠٢).

في كتابه (الأمير) حيث طرح نصائحاً للسياسيين بالدعوة إلى الاهتمام بالمظاهر، وإخفاء الخداع والغش والخيانة، وعدم الاستقامة، واستبعاد الفضائل من الممارسات السياسية، وأن على رجل السياسة أن يحرص على المحافظة على مصالحه الشخصية، ولو كان ذلك على حساب الوعود التي قطعها للجمهور، بل عليه أن يتخلى عن تلك العهود والوعود متى ما أحس بأن الالتزام بها قد يؤدي إلى الإضرار بتلك المصالح الشخصية، والمكاسب السياسية، لكن في الوقت نفسه يجب أن يكون مدهناً كبيراً، ومُرائياً بارعاً.

وقد صوّر الأستاذ مصطفى لطفي المنفلوطي في بعض مقالاته^(١) هذه الآفات التي أصابت ساسة زمانه لتخليهم عن المنهج الإسلامي والتزامهم بالمنهج اللاديني في حياتهم السياسيّة ، وهي صورةٌ تنطبق على أغلب من يمارس السياسة اليوم تحت المبدأ العُلْمانيّ سواءً كان مسلمًا بالانتماء أو غيرَ مسلم في الأصل.

ولقد دفع التّصور العُلْماني للّدول والشّعوب إلى التّنافس المدمّر على المصالح المادّية وإلى الصّراع المستمر على الغنائم، وأحسن أحوال الصّراع كان يسمّى بالحرب الباردة، وأرسى

(١) انظر : المنفلوطي، مصطفى لطفي: النظرات، (ضمن الأعمال الكاملة)، الدار النموذجية، ط. ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م، بيروت (ص١٣٦-١٣٧).

التّصور العلماني قاعدة التّعامل بين الدّول والشعوب على أساس المصالح المادية وحدها.

ومن خلال هذه القاعدة للتعامل كان التّنافس والتآمر يمثلان طبيعة العلاقات في حالات السّلم المؤقت والعلاقات الوديّة. ومن هذا المنطق دار الصّراع بين الاتحاد السّوفياتي والغرب سنين طويلة، استنفذت أموالاً وجهوداً طائلة ، ودفعت كلّ دولةٍ إلى أن تُنافس الأخرى في ميادين التّسلّح بالدرجة الأولى خلال الحرب الباردة حتى أصبح هذا التّنافس يهدّد الأمن العالمي، ولم تنفرج الأزمة إلاّ باختيار الاتّحاد السّوفياتي ، ولكن ليستمر النهج العلماني هنا وهناك ليهدّد عند هذه شعوباً ودولاً ، ويهدّد عند تلك شعوباً ودولاً.

إن «السياسة الميكيفيليّة» كانت سائدةً في السّاحة الدّولة مهما رفعت شعارات وزخارف. ولم يقتصر التّنافس

على الدولتين العظيمنتين، وإنما ساد الدول جميعها على قدر
حجم المصالح ومستواها^(١).

الثالث: الجانب الأخلاقي والاجتماعي:

بين المنهج العلماني والأخلاق مساحةً واسعة بسبب ما
حصّل الغرب من تقدم دنيويّ لم يصحبه تقدّم خلقيّ مرتبطاً
بالدين الحقّ، وقد وجد أصحاب هذا الاتجاه صعوبة
التمسك بالأخلاق الفطريّة التي فطر الله الخلق عليها، وعند
ذلك احتالوا على أنفسهم وعلى من اتّبعتهم بأهميّة تجاوز
تلك الأخلاق القديمة بحجّة أنها قديمة.

وحقيقة الدعوى أنّ النفوس قد أصابها لوثاتٌ من
العلمنة والماديّة والإلحاد مما جعلها تنفر من الأخلاق الفطريّة

(١) النحوي: المسلمون بين العلمانيّة وحقوق الإنسان الوضعية،
(ص ١٥٧-١٥٨).

التي فطر الله النَّاس عليها وأتى بالأنبياء عليهم الصلاة
والسَّلام لتتميمها وترسيخها، فجاءت هذه الدَّعوات الهاربة
من الأخلاق والقيم لتؤسِّس أخلاقاً وقيماً جديدة تُناسب -
بحسب دعواهم - العصرَ، ومع ذلك فكلُّ مراقب ومتابع
يجد اتِّساع الأزمة الخلقية والقيمية^(١).

وقد رصد لنا الدكتور عبد الرحمن صورةً هذا التَّشكُّل
العلماني الجديد في ميدان الأخلاق والذي تحوَّل كإطارٍ لحركة
ميدان الأخلاق فيما بعد، وتعتمد أساساً على فصل
الأخلاق عن الدِّين ، ويقوم هذا الفصل على ثلاثة مبادئ:

(١) انظر : الأسمري، حسن بن محمد حسن: النظريات العلمية الحديثة:
مسيرتها الفكرية وأسلوب الفكر التغريبي العربي في التعامل معها، دراسة
نقدية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط. الأولى
١٤٣٣ هـ / ٢٠١٢ م، (ص ١٠٤٧).

الأول : مبدأ التّوجه إلى الإنسان: يقضي هذا المبدأ بأن نترك التّوجه في تصوراتنا وتصرّفاتنا إلى الإله ونقتصر فيها على التّوجه إلى الإنسان، إذ يرون أنّ الإنسان قادرٌ على أن يتولّى أمر نفسه دون الحاجة للاستعانة بقوةٍ غيبيّةٍ أو التّوكل على موجود متعال، فهو مبدأ يدعو إلى الانفصال عن الإله.

الثاني : مبدأ التّوسل بالعقل: يقضي هذا المبدأ بأن نترك التّوسل في أفكارنا وسلوكنا بالوحي نقتصر فيها على التّوسل بالعقل ، فالإنسان أصبح قادراً على الاستقلال بعقله لإصدار الأحكام والفعل بمقتضاها، ولا سلطان خارجي يهديه لصواب الأحكام أو صلاح الأفعال، فهو مبدأ يدعو إلى الانفصال عن الوحي.

الثالث : مبدأ التّعلّق بالدّنيا : يقضي هذا المبدأ بأن نترك التّعلّق في أعمالنا ومعاملاتنا بالآخرة، ونقتصر على

التعلّق بالدنيا؛ فالدنيا هي الحقيقة الوحيدة، وهي المستقرّ،
وفيها الفلاح ، ويكون بما ينجز من تقدم، وليست أخبارُ
الآخرة ولا الخلاصُ الأبديُّ فيها في ظنّهم إلاّ مجرد توهيمات
وتضليلات ينبغي العملُ على إخراج النَّاس منها بتنوير
عقولهم وتحرير إرادتهم ، فهو مبدأ يدعو إلى الانفصال عن
الآخرة^(١).

وقد أثرت هذه المبادئ في فصل الأخلاق عن الدّين
ومن ثمّ تأسيس نظامٍ أخلاقيٍّ منفصل عن الإيمان بالله، وعن
الاهتداء بالوحي، وعن الاستعداد للدّار الآخرة، ومع عدم
المبالاة في الفكر العلماني بالربّ سبحانه وبالدين. إلاّ أنّه

(١) انظر : طه، عبد الرحمن : روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة
الإسلامية، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء، ط. الأولى ٢٠٠٦م، بيروت،
(ص ١٠٠-١٠١).

كان عزيزًا على الإنسان الانسلاخُ عن الأخلاق الفطريّة لما في ذلك من تهديد بتحويله إلى أخلاق بهيميّة ، ولذلك كان انفصال هذه البيئة عن الأخلاق بطيئًا، ومن مجالات اجتماعية مختلفة ، فبدأت من مجال السياسة مع الميكيفيلّيّة، فالغاية تبرر الوسيلة، وبهذا تمارس السياسة دون أخلاق. ثم أزيحت الأخلاق من المجال الاقتصادي مع الثورة الصناعيّة بتحليل الرّبّا، وقيام أخلاقٍ رأسماليّةٍ بشعّةٍ يهّمها الرّبح دون النّظر للأخلاق، ثم أزيحت الأخلاقُ من مجال العلم حيث برزت أخلاقياتٌ سيّئةٌ في المجال العلميّ، ولا سيما في تحويل العلم كأداة في الانحراف الفكريّ والأخلاقي. ثم أزيحت من مجال الفكر ، فقد تحرّر المفكّر من الأمانة الحقيقيّة، وأصبح ينشر الرّيف والغشّ وإفساد العقيدة باسم حرّيّة الفكر والنّقد، ثم أزيحت الأخلاق من مجال العلاقات الجنسيّة، حيث حول الجنس لمسألةٍ بيولوجيةٍ لا علاقة لها بالأخلاق ،

وأخيراً أفرغت الأخلاق ذاتها من مضمونها حيث قيل : إنّها ليس لها وجود ذاتي إنما هي انعكاس للأوضاع الماديّة والاقتصادية، أو أنّها من صنع العقل الجمعيّ إلى غير ذلك تحت مسمّى العلميّة^(١).

ومن ثمّ نجد أصحاب الاتجاه العلمانيّ قد «بالغوا في تقرير مبدأ الحرّيّة، وأصلّوا فصل الفرد عن كلّ مؤثّر عليه، ووجوب محاربة كلّ شيءٍ يؤثّر على اختياره في القلب والجوارح ، سواء قبيلة أو عاقلة أو أسرة ممتدّة، أو عُرف، أو عادة، أو دين، بل ينبغي أن ينفكّ الفرد عن كلّ مؤثّر إلّا من العقل الذي ينعكس على الطّبيعة من حوله، فيخرج

(١) انظر : محمد قطب: مذاهب فكرية معاصرة، دار الشروق، ط. الرابعة ١٤٠٩ هـ/١٩٨٨ م، القاهرة، (ص٤٨٦-٤٨٧) ، والأسمري: النظريات العلمية الحديثية، (ص١٠٤٩-١٠٥٠).

بنتائج منها، حتى في صورٍ تخالف الفطرة، وجميع شرائع
السّماء، ولا وجود للحياء الذي يمنع النّاس من الفواحش
والبذاءة مع رغبتهم فيها، ولا وجود للكرم والعفة وغيرها،
وغير ذلك من أنواع الفطرة التي كثيرا ما يحيل الله إليها
وأنبياؤه.

ولا سلطة للأب على ابنه تخوّله ضربه على خطأ أو
مجونٍ أو انحرافٍ، فإن فعل، سقطت ولايته عليه، مهما فعل
الابن وقال، وجعلوا تصرّف الطّفل ولو كان [دون] العاشرة
صحيحًا كالكبير، فينشأ الطّفل على رغباتٍ يمارسها ويتدرّج
بها فتصبح مستساغةً عند كبره فتقلب الفطرة»^(١).

(١) الطريفي: العقلية الليبرالية، (ص ٧٩).

وقد استهدفت العلمانيّة المرأة بالدرجة الأولى باعتبارها الوسيلة المهمّة للنيل من قيم المجتمع وهدم ركائزه الإيمانيّة، إذ الأمّ هي المدرسة التي تصنع الجيل، وتربي الأمّة، فإذا سقطت في هاوية التّغريب والرّذيلة فإنّ النتيجة الحتميّة هي سقوط الأمّة بأكملها وانحطاطها إلى الحضيض^(١).

الخامس : الجانبُ الفكريّ والثّقافي والإعلاميّ

لما كانت البلاد الإسلاميّة في سابق عهدها إسلاميّة التّعليم، فقد كبر على الاستعمار الغازي أن يترك للمسلمين دينهم بعد أن أبي عليهم أن يترك لهم أرضهم.

(١) وللتوسع في هذا الباب راجع : المقدم، محمد بن إسماعيل : معركة الحجاب والسفور، القسم الأول من عودة الحجاب، ط. الرابعة، دار طيبة، الرياض.

وكان لا بدّ له أن يحقّق لهم (جهالتهم) بالدّين ليتحقّق فيهم من بعد أنّ من جهل شيئاً عاداه.

وكان له في ذلك أكثر من سبيل :

(١) لجأ إلى حصر التّعليم الدّيني مادّيّاً ومعنويّاً:

فأمّا الحصار المادّي فقد كان يفتح التّعليم اللاديني في مواجهته وتشجيعه، وهو ما أشار إليه المستشرق جب: «بانمء التّعليم العلماني تحت الإشراف الإنجليزي في مصر والهند». وتمّ تضييق الموارد الماديّة على التّعليم الدّيني، وإغداقها على التّعليم اللاديني.

وأمّا الحصار المعنويّ فهو ما لجأ إليه من تنفير وسخرية بطالب العلم الدّيني وبأستاذه، وبالتّفرقة بين أستاذ الدّين وأساتذة الموادّ الأخرى في كلّ شيء... ثمّ التّفرقة بين خرّيج المعاهد والكلّيّات الدّينيّة وبين زملائه في الكلّيّات الأخرى،

فمناصب المعاهد والكليات الدينيّة محدودة متواضعة في المظهر والأجر، ومناصب المعاهد والكليات الأخرى عديدة كثيرة فارهة المظهر والأجر، فسبب ذلك كلّهُ نفورًا من الدّين، وإقبالاً على غير الدّين^(١).

(٢) الابتعاث إلى الخارج إلى الدّول غير الإسلاميّة:

وحقّق ذلك نتائج مقصودة، منها : أنّ طالب التّعليم العام يزداد جهالةً بدينه وقيمه ومثله، ويزداد تعلقًا بقيم

(١) انظر ما قامت به حكومة الاستعمار في نيجيريا من وضع مشروع يهدف إلى توهين وطمس الهوية الإسلامية بين مسلمي نيجيريا آنذاك : غلادثني : شيخو أحمد سعيد: حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ط. الثانية ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، (دون ذكر الناشر) (ص٧٨-٨٠)، موسى، محمد الثاني عمر: الشيخ عثمان بن فودي والطريق لاستعادة الهوية، مقال منشور في مجلة قراءات إفريقية، العدد الأول، رمضان ١٤٢٥هـ- أكتوبر ٢٠٠٤م، (ص٣٨-٣٩).

الغرب، فيبدأ بتطبيعه بطباع غير إسلامية حتى ينسلخ من حيث لا يشعر من تقاليد وعاداته في الملابس والمأكل والمشرب وطريقة التعامل والتفكير.

وقد تحدث (ولفرد كانتون سميث) بإجمال عن التأثير الثقافي الغربي قائلاً: «إنَّ أهمَّ أسباب حركة الحرية والإباحية، التي تسود في العالم الإسلامي اليوم، ومن أكبر عواملها هو نفوذ الغرب، فقد سافر كثيرٌ من الشباب المسلمين إلى الغرب، واطَّلَعوا على روح أوروبا وقيمها وأعجبوا بها إلى أبعد حدٍّ. وهم الذين سبَّبوا استيراد كثيرٍ من أفكار الغرب وقيمته إلى العالم الإسلامي، وحازت المعاهد الثقافية قصب السبق في تربية جيلٍ بأكمله على النمط الغربي الحديث.

ونتج عن ذلك أنَّ كثيرًا من المسلمين اعترفًا بهذه النظريات الوافدة، والمعاهد الجديدة كحقيقة ثابتة وخضعوا

لها بالتدريج، وبذلك استمرت عملية التّغريب تسير بسرعة وقوة بالعتين»^(١).

(٣) انتشار المدارس الأجنبية في البلاد الإسلامية:

وقد كانت في البداية سبيلاً لتنصير المسلمين، ثم تحوّل الغرض إلى مجرّد إخراجهم من الإسلام من دون الحاجة إلى دخولهم في النصرانية^(٢).

(٤) الازدراء باللغة العربية وإضعافها في التّعليم العام:

لقد أدرك أعداء الله أنّ لفهم الكتاب والسنة وتدبرهما قاعدتين أساسيتين تنطلق منهما سائر القواعد.

(١) الحوالي: العلمانية (ص ٥٩٦).

(٢) انظر : جريشة، محمد علي، والزيق، محمد شريف: أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، دار الاعتصام، (بدون تاريخ) القاهرة، (ص ٦٣ - ٦٦).

هاتان القاعدتان هما: صفاء الإيمان والتوحيد، واللغة العربية.

أدركوا أن اللغة العربية كانت اللغة الأولى لكلّ مسلم مهما كان جنسه أو كانت أرضه، وأدركوا أنّ اللغة العربيّة كانت إحدى الرّوابط التي تربط هذه الأمّة المسلمة، وتحفظ وحدتها وقوتها ، ومن الأسباب الجامعة لها.

إنها لغة الوحي والنّبوة، ولغة القرآن والسنة ، ولغة العبادة، إنها اللّغة التي اختارها الله سبحانه وتعالى للرّسالة الخاتمة، ودينه، فلم تعد لغة العرب وحدهم، ولكنها أصبحت لغة الرّسالة الربّانيّة، ولغة أمّة الإسلام، فوضعوا غايةً جهودهم لعزل المسلم عن لغة العرب وتوهين صلته بها. فأصبحت اللّغات الأجنبيّة هي محلّ اهتمام أكثر المسلمين وأكثرهم لا يعلمون من لغة القرآن شيئاً بل حتّى

بين العرب أنفسهم كان أكثرهم لا يُحسنون استخدامها
استخدامًا صحيحًا، فامتألت الصّحف والمجلاّت والإذاعات
بأخطاءٍ لغويّة كثيرة فاحشة.

ونتج من ذلك الانحرافُ في التّصور والفكر وذلك لعدم
دراسة الكتاب والسنة باللّغة العربيّة، فتجد من يسمى
(مثقّفًا) حتّى من بين العرب أنفسهم من لا يحسن شيئًا من
اللّغة العربيّة، ولكنه يُتقن لغةً من اللّغات الأجنبيّة يفتخر بها،
وهي لغة الحديث في بيته مع زوجته وأطفاله ، وفي عمله
ووظيفته، يتحمّس لها أكثر من حماسه للّغة القوميّة نفسها،
بينما تجد معظمَ القوميّات المتحضّرة يتعصّبون للغاتهم تعصّبًا
مبالغًا فيه، ولو حدّثت بعضهم بغير لغته ما أجابك، وهذا

مظهرٌ من مظاهر الغزو الفكري والعلمي فرضتها العُلمانيَّة
على الشُّعوب الإسلاميَّة فرضاً^(١).

٥) نشر الاختلاط بين الجنسين في مراحل التَّعليم:

قد بدأو به في الجامعات في أكثر البلاد الإسلاميَّة تحت
دعوى التَّقدم والتَّمدن، ونشر الرُّوح الجامعيَّة ، وكأنَّ ذلك لا
يتم إلاَّ بإشعال نار الغرائز وتأجيج سُعار الشَّهوة في الشَّاب
الملتهب، وقد سبقت هذه الخطوة خطوةً تعريبة المرأة
(المسلمة) أو كشف الحجاب عنها، كذلك تحت دعاوي
التَّحرر والتَّمدن، ليزول الحياء قبل الاختلاط فيسقط آخر

(١) انظر تفاصيل ذلك في : المسلمون بين العُلمانيَّة وحقوق الإنسان
الوضعية، للنحوي (ص ٨٩-٩٠).

وانظر : موسى، محمد الثاني عمر : الشيخ عثمان بن فودي والطريق
لاستعادة الهوية، مجلة قراءات إفريقية، العدد الأول، (ص ٤٠).

مانعٍ يحول دون اشتعال النار .. وهكذا ينزوي التعلّم
الديني^(١).

وأما ما يتعلّق بالإعلام فإنّ مما يثير في النفس الحسرة
والألم أنّ وسائل الإعلام في الدّول الإسلاميّة - مقروءة
كانت أو مسموعة أو مرئية - قد سارت في ركاب الإعلام
العالمي الذي صنّعه العُلَمانيّة والصليبيّة العالمية، فجعلت أهمّ
وأعظم أهدافها التفنّن في إثارة الغرائز والشّهوات، بالبرامج

(١) انظر: جريشة، والزيق: أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي،
(ص ٦٧-٦٩).

التّافهة، والمسلسلات الخليعة، والأفلام الماجنة والصّور العارية ... كلّ هذا بدعوى التّطوّر ومسايرة العصر^(١).

وبنظرة سريعة إلى أغلب الصّحف والمجالات والمخطّات الإذاعية والتلفازية تُبيّن أنّها تجعلّ جلّ اهتمامها منصبّاً على أخبار (الفنّ والفنّانين) أو (الرياضة) أو متابعة أحد صيحات (الموضة العالمية) ... وكذلك تسليط الأضواء على أهل هذه المجالات وتقديمهم إلى المشاهد أو المستمع أو القارئ، باعتبارهم النّجوم اللامعة أصحاب القدوة الصّالحة... وفي المقابل تتوارى بقيّة المجالات ، وخاصّة المجال الدّيني ، حيث لا تعطي له إلاّ مساحة ضئيلة لا تكاد تذكر ، وفي الوقت

(١) للوقوف على خطورة وسائل الإعلام وأثرها السيء على الحياة الإسلامية، في كتاب (واقعنا المعاصر) للأستاذ محمد قطب (ص ٢٣٥ فما بعدها).

نفسه لا روح لها ولا تأثير، حيث أُريد لصفحات الفكر
الديني في الصحف وللبرامج الدينية في الإذاعة والتلفاز أن
تتناول موضوعاتٍ محدّدة، لا صلة لها بالواقع الذي يعايشه
المسلم، مما يجعلها باهتةً ضعيفةً التأثير إن لم تكن معدومةً
التأثير أصلاً^(١).

ويوضح د. محمد محمد حسين هذا الجانب بقوله :

«وخطة الاستعمار والصّهيوينة العالمية في ذلك الوقت
تقوم - ولا تزال - على السيطرة على أجهزة النشر التي
نُسّمِيها الآن (الإعلام) ، وإلقاء الأضواء من طريقها على
كُتّاب ومفكرين من نوعٍ خاصّ، يُبَنون ويُنشئون بالطريقة

(١) أبو شبانة ، ياسر : النظام الدولي الجديد بين الواقع الحالي والتصور
الإسلامي، دار السلام ، ط. الأولى ١٩٩٨م، ١٤١٨هـ، القاهرة،
(ص٦٩٧-٦٩٨).

التي تُبنى نجوم التمثيل والرّقص والغناء، بالمدّاومة على الإعلان عنهم، والإشادة بهم، وإسباغ الألقاب عليه، ونشر أخبارهم وصُورهم. وذلك في الوقت الذي يُهمل فيه الكُتّاب والمفكّرون الذين يصوِّرون وجهات النظر المعارضة أو تُشوّه آراؤهم وتسفّه، ويُشهرّ بهم، ثم هي تقوم على تكرار آرائهم أنّا بعد أنّ لا يعلمون من التكرار، لأنهم يعلمون أنهم يخاطبون في كلّ مرّة جيلاً جديداً، أو هم يخاطبون الجيل نفسه، فيتعهّدون بالسّقي البذور التي ألقوها من قبل»^(١).

السّادس: الجانب الاقتصاديّ:

تسنّ العُلَمانيّة القوانين والتّشريعات والضّوابط الاقتصادية بعيداً عن الدّين.

(١) محمد محمد حسين : الإسلام والحضارة الغربية، مؤسسة الرسالة، بيروت (بدون تاريخ) (ص ٤٨-٤٩).

ولا مكان في العُلَمائيَّة للحديث عن تحريم الرِّبا
والاحتكار والميسر وغير ذلك، ولا مكان لإيجاب الزكاة،
لأنها معاملات ذات صبغة دينيَّة، والدَّيْنُ لا دخل له في
شؤون الدَّولة حسب المعتقد العلماني.

ويدور الاقتصاد العلمانيّ على الرِّبح والمنفعة، ولا يَهْمُّ بما
تحقِّق؛ سواء بظهور أو ربا أو ميسر أو أفلام إباحيَّة، أو دور
دعارة، أو حتى أسلحة للعصابات المسلَّحة، ولا اعتبار لأيَّة
كوابح دينيَّة، بل حتى الشَّواذ إذا أدوا الضَّرائب المفروضة فلا
مانع من فتح دور للدَّعارة خاصَّة بهم، والدَّيْنُ لا دخل له في
كلِّ هذه التَّشريعات^(١).

(١) السلاوي: العُلَمائيَّة : المفهوم والأسباب والمظاهر، (ص ٥٤-٥٥).

ما بين تطبيق العَلْمَانِيَّة في الغرب وتطبيقها في العالم الإسلامي

إنَّ النَّاطِر في تطبيقات (العَلْمَانِيَّة) في الغرب النَّصْرَانِي يجد - ولا بُدَّ - أنَّه لا مجال للقياس في هذه القضية بين الغرب وبين البلاد الإسلاميَّة، فالقياس بينهما كالقياس بين القرآن الكريم ، وبين الكتب المحرَّفة، أو بين الإسلام وبين الأديان الباطلة. وأدنى تأمُّل للمرء بين الوضعين يدرك به وجوه الاختلاف بين العالمين، وهي كثيرة جدًّا منها :

(١) أنَّ المناداة بفصل الدِّين عن الدَّولة في تاريخ المسيحيَّة عودٌ بها إلى وضعها الأوَّل المذكور في أناجيل القوم، وأنَّ انحرافها عن هذا المبدأ جرَّ عليها وعلى شعوبها البلاء والشقاء.

أمّا في الإسلام فإنّ المناداة بفصل الدّين عن الدّولة انحرافٌ به عما ورد في القرآن الكريم، وأنّ وقوع هذا الفصل في بعض مراحل التّاريخ هو الذي جرّ على الإسلام والمسلمين البلاء والشّقاء.

(٢) أنّ علاقة الدّين والدّولة في تاريخ القرون الوسطى جعل من رجال الدّين طبقةً تمثّل السّيطة والاضطهاد والتّعصب، ولكن علاقة الدّين بالدّولة في عصور الإسلام الزّاهرة لم تخلق مثل هذه الطبقة إذ الإسلام نفسه لا يعترف بوجودها، فكيف يعترف بحقّها في السّيطة والاستعلاء.

(٣) أنّ ربط الدّولة بالدين في أوروبا أدّى إلى اضطهاد الفكر وخنق الحريّات وقيام الحروب الدينيّة المفجعة، وخضوع النّاس لكابوس الخرافة والجهالة والبؤس.

أما ربطُ الدولة بالدين في عصور الإسلام الزَّاهرة فقد أدى إلى انطلاق الفكر وحماية الحريّات الدّينيّة وإشاعة السّلام وتحرير النّاس من أوهام الخرافات والشّعوذة، وتحقيق الكرامة الإنسانيّة والعدالة والاجتماعيّة بين الشّعوب.

(٤) إنّ فصل الدّين عن الدّولة في تاريخ أوروبا كان في عصر نهضتها الكبرى، ولقد سارت من بعده حرّةً طليقةً ، تُسيطر على شؤون العالم وتتحكّم في مصائره.

أما في الإسلام فإنّ أزهى عصور حضارته وأحفلها بالقوّة والمجد، وأجداها على الإنسانيّة هي العصور التي قامت فيها دولته على مبادئ شريعته، وما حدث الجفاء بين الدّين والدّولة إلّا في عصور الضّعف والجمود والفوضى^(١).

(١) انظر : الصاوي: موقف الإسلام من العُلَمائيّة، (ص٢٩-٣٠).

٥) المسيحية تقبل القسمة بين الله وبين قيصر، فإنّ فيها نصوصاً تؤيد فكرة الفصل بين الدين والدولة؛ فقد اشتهرت عندهم عبارة (اعط ما لقيصر لقيصر، وما لله لله)

وسند هذا من تاريخ الفكر الغربي أنّه لم يعرف الله فهو عندهم إله مثل إله أرسطو الذي لا يعلم شيئاً غير ذاته، ولا يدري عمّا في الكون شيئاً، ولا يدبر فيه أمراً، ولا يحرك ساكناً.

أمّا في الإسلام فالإله قد كان محيطاً بكلّ شيءٍ علماً، مدبراً الأمر من السماء إلى الأرض، لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء ولا يعزب عنه من مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء، وسع كلّ شيءٍ رحمةً وعلماً، بعث الرسل مبشرين ومنذرين، لئلا يكون للناس على الله حجةٌ

بعد الرّسل، وأنزل معهم الكتاب بالحقّ ليحكم بين النّاس
فيما اختلفوا فيه^(١).

٦) المسيحيّة ليس فيها تشريع مفصّل لشؤون الحياة ،
وإنما هي روحانيّات وأخلاقيّات تضمّنتها الإنجيل وكلمات
المسيح فيه، هذا بخلاف الإسلام الذي جاء عقيدةً وشريعةً
ووضع الأصول لحياة الإنسان من المهد إلى اللحد: ﴿ وَنَزَّلْنَا
عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى
لِّلْمُسْلِمِينَ ﴾ النحل: ٨٩. «ولهذا شمل التشريع الإسلامي
الحلال والحرام في حياة الفرد، كما نظم الحقوق والواجبات
في دائرة الأسرة، ونظّم شؤون المبادلات والمعاملات في
المجتمع بين الناس بعضهم وبعض، كما عُني بشؤون الإدارة

(١) انظر: القرضاوي: الإسلام والعلمانيّة وجهها لوجه (ص ٤٧).

والمال، والسياسة الشرعية، وكلّ ما يتعلّق بحقوق الرّاعي والرعيّة، وكذلك بالعلاقات الدّولية بين الأُمّة الإسلاميّة وغيرها من الأمم المسلمين والمحاربين»^(١).

(٧) الإسلام يحكم في أمور الدّين ، و(العلمانيّة) لا تريد للدّين أن يحكم فيها، الإسلام يقرّر قواعد السياسة والاقتصاد، و(العلمانيّة) تقرّر قواعد مختلفة ، ولا تريد للدّين أن يتدخل في السياسة والاقتصاد إلا بمقدار ما يحتاج إليه المجرمون في الأرض من استغلال الدّين من أجل تأمين أطماعهم^(٢).

(١) القرضاوي: المصدر السابق (ص٤٨).

(٢) انظر : النحوي: المسلمون بين العلمانيّة وحقوق الإنسان الوضعية، (ص٦١)، وانظر - بتوسع - الاختلافات بين الإسلام والعلمانيّة في المصدر نفسه ، (ص٥٩-٧٣).

تريد (العُلَمانيَّة) من الإسلام أن يقنع بركنٍ أو زاويةٍ في بعض جوانب الحياة لا يتجاوزها ولا يتعدّها، وهذا تفضُّلٌ منها عليه، لأنّ الأصل أن تكون الحياة كلّها لها بلا مزاحم أو شريك، فعلى الإسلام أن يقنع بالحديث الدّيني في الإذاعة أو في التّلفاز، وأن يقنع بالصّفحة الدّينيّة في الصحيفة يوم الجمعة، وأن يقنع بحصّة التّربية الدّينيّة في برامج التّعليم العام، وأن يقنع بقانون الأحوال الشخصيّة في قوانين الدّولة، وأن يقنع بالمسجد في مؤسّسات المجتمع، وأن يقنع بوزارة الأوقاف في أجهزة الحكومة^(١).

(١) القرضاوي: الإسلام والعُلَمانيَّة وجهها لوجه، (ص ٩٤).

الخاتمة : سبلُ استعادة هويّة الأمة الإسلاميّة

ويتمّ ذلك عبر الخطوات التّالية:

(١) بناء الفرد المسلم روحيًا وماديًا وأخلاقيًا حتى يصبح إنسانًا صالحًا متحلّيًا بكلّ فضيلةٍ، متخلّيًا عن كلّ رذيلةٍ؛ ليكون نواةً طيِّبةً لأسرةٍ صالحةٍ قويّة.

(٢) بناء الأسرة المسلمة الصّالحة ، يبدأ ذلك من اختيار الزّوج والزوجة حسب التّوجيهات الإسلاميّة، تقوم هذه الأسرة على المعاشرة بالمعروف، وتربية الأولاد تربيةً إسلاميّةً صحيحة.

(٣) بناء المجتمع المسلم على أساس الانقياد لشريعة الله ، في المجال السّياسي والتّشريعي، ويقوم كذلك على تحقيق مبدأ العدل في كافّة المجالات والأوقات، كما يقوم على

ترسيخ مبدأ الشورى في نظامه السياسي وفي سائر مجالات الحياة، من قاعدته إلى قمته.

٤) ويمتاز في المجال الاقتصادي على العمل المتواصل ومحاربة البطالة، يؤسس المعاملات المالية والتجارية على الصدق والأمانة، وتحريم الربا بكافة أشكاله وأنواعه، كما ينأى عن الغش والتدليس، ويبتعد عن الاحتكار واكتناز رأس المال، ويقوم بتذويب الفوارق بين طبقاته، ويحقق التكافل الاجتماعي بين أفراده، عن طريق مشاريع تكافلية تضامنية، وإبراز فريضة الزكاة الواجبة، والحث على الصدقات التطوعية، وتشجيع الاستثمار والحد من التسول والاعتماد على الآخرين.

٥) كما يقوم هذا المجتمع في المجال الاجتماعي على التعاون على البر والتقوى وتأصيل أواصر المحبة والإيثار والتناصح بين أفرادها والتي هي أحسن.

٦) وفي المجال العلمي والفكري، يحرص على تسخير العلم لخدمة الإنسان لا لتعطيم وجوده، وتخریب قيمه وأخلاقه، كما يفعل أصحاب الحضارة الماديّة. ويسعى لتحصيل القوّة ووسائل الغلبة والتّمكين؛ لحماية الحقّ وردع الباطل.

وهكذا في جميع مجالات الحياة ومناحيها، وبهذا يمكن للأمة أن تنهض وتنفض عن نفسها أضرار العُلَمانيّة ولوثات الحضارة الماديّة، وتستغلّ الإمكانيات المتاحة لديها لتحقيق نهضة علميّة وسياسيّة وفكريّة لتحلّ موقعها في قيادة هذا العالم الحائر، وتوجيه هذه البشرية التّائهة، وسبيل ذلك ميسورٌ، وطريقه معروف، فالمحنة البيضاء ماثلة أمام مبتغيها، ونهج الحقّ أبلغ بنوره الوضاء:

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى
يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٥].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

محمد الثاني عمر موسى

مدينة كانو - حرسها الله

جمادى الثانية ١٤٣٦هـ / أبريل ٢٠١٥م

ثبت المصادر والمراجع

● أبو شبانة، ياسر : النظام الدولي الجديد بين الواقع الحالي والتصور الإسلامي، دار السلام ، ط. الأولى ١٩٩٨م، ١٤١٨هـ، القاهرة.

● الأسمري، حسن بن محمد حسن: النظريات العلمية الحديثة: مسيرتها الفكرية وأسلوب الفكر التغريبي العربي في التعامل معها، دراسة نقدية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط. الأولى ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، قطر.

● البهي، محمد: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، دار الفكر ، ط. السادسة ١٩٧٣م، بيروت.

- جريشة، محمد علي، والزيق، محمد شريف: أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، دار الاعتصام، (بدون تاريخ) القاهرة.
- الخالدي، محمد فاروق: التيار الفكرية والعقدية في النصف الثاني من القرن العشرين في بلاد الشام، دار المعالي، ط. الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، الأردن.
- الصاوي، صلاح، موقف الإسلام من العلمانية، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ط. الأولى، ١٤٢٢هـ، السعودية.
- الطريفي، عبد العزيز بن مرزوق : العقلية الليبرالية في رصف العقل، ووصف النقل، مكتبة دار المنهاج، ط. الرابعة، ١٤٣٤هـ. الرياض.

● طه، عبد الرحمن : روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء، ط. الأولى ٢٠٠٦م، بيروت.

● العقاد، عباس محمود: الإسلام والحضارة الإنسانيّة، المكتبة العصرية، (بدون تاريخ)، بيروت.

● غلادنتي : شيخو أحمد سعيد: حركة اللغة العربية وأدبها في نيجيريا، ط. الثانية ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، (دون ذكر الناشر).

● القرضاوي، يوسف بن عبد الله: الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، مكتبة وهبة، ط. الخامسة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، القاهرة.

● القرضاوي، يوسف عبد الله: الإسلام والعلمانيّة وجها لوجه، مكتبة وهبة، (بدون ط. وتاريخ)، القاهرة.

- لوшатليه، الفريد : الغارة على العالم الإسلامي،
لخصه ونقله إلى العربية، مساعد اليافي، محب الدين الخطيب،
منشورات العصر الحديث، ط. الثانية ١٣٨٧هـ، جدة.
- مجموعة من الباحثين : الموسوعة الميسرة في الأديان
والمذاهب والأحزاب المعاصرة، دار الندوة العالمية، ط. الثالثة،
١٤١٨هـ، الرياض.
- مجموعة من الباحثين: المعجم الوسيط، المكتبة
العلمية، (بدون تاريخ وطبعة).
- تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، للسيد محمد
رشيد رضا، دار الفضيلة، ط. الثانية ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م،
طهران.
- محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العليّة العثمانيّة،
دار الجيل، ط. ١٣٧٩هـ/١٩٧٧م، بيروت.

● محمد قطب:

- مذاهب فكرية معاصرة، دار الشروق، ط. الرابعة

١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، القاهرة.

- واقعنا المعاصر، مؤسسة المدينة للصحافة، ط. الثانية

١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، السعودية.

● محمد محمد حسين: الإسلام والحضارة الغربية،

مؤسسة الرسالة، (بدون تاريخ)، بيروت.

● المقدم، محمد بن إسماعيل: معركة الحجاب والسفور،

القسم الأول من عودة الحجاب، ط. الرابعة، دار طيبة،
الرياض.

● انظر: المنفلوطي، مصطفى لطفى: النظرات، (ضمن

الأعمال الكاملة)، الـدار النموذجية، ط.

١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م، بيروت.

- موسى، محمد الثاني عمر: الشيخ عثمان بن فودي والطريق لاستعادة الهوية، مقال منشور في مجلة قراءات إفريقية، العدد الأول، رمضان ١٤٢٥هـ - أكتوبر ٢٠٠٤م.
- الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة: كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، دار القلم، ط. الثالثة، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، دمشق.
- التّحوي، عدنان علي رضا: المسلمون بين العُلمانيّة وحقوق الإنسان الوضعية، دار النحوي، ط. الأولى ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، السعودية.
- الهادي، محمّد زين : مجالات انتشار العُلمانيّة وأثرها في المجتمع الإسلامي، دار العاصمة، ط. الأولى ١٤٠٩هـ، السعودية.

- Kurawa, Ibrahim Ado, Shari'a and the Press in Nigeria, Islam versus Western Christian Civilization, 2000, Kano.
- www.britanica.com/EBchecked/532006/secularism

محتويات الرسالة

- ٣ المدخل :
- ٦ مفهوم (العُلْمانيَّة)
- ١٢ العُلْمانيَّة في الغرب: نشأة وأسباب
- ١٣ أولاً : الطُّغيان الكُنسي:
- ١٦ أ) الطُّغيان الدِّيني
- ١٨ ب) الطُّغيان السِّياسي :
- ٢٠ ج) الطُّغيان المالمِّي:
- ٢٢ ثانياً: الصِّراع بين الكنيسة والعلم:
- ٢٦ ثالثاً : الثُّورة الفرنسيَّة:
- ٣٢ العُلْمانيَّة في العالم الإسلامي: الأسباب والآثار
- ٣٢ أولاً : أسباب تسرب العُلْمانيَّة إلى العالم الإسلامي
- ٤٣ ب) الأسباب الخارجِيَّة:
- ٤٣ الأوَّل : الاستعمار الغربي:

- ٦٠ ثانياً : آثار العُلَمائِيَّة في المجتمعات الإسلاميَّة :
- ٦٠ الأول : الجانب الديني والتشريعي :
- ٦٨ نماذج الاتجاهات العُلَمائِيَّة في العالم العربي والإسلامي :
- ٧١ الثاني : الجانب السياسي :
- ٧٥ الثالث : الجانب الأخلاقي والاجتماعي :
- ٨٢ الخامس : الجانب الفكري والثقافي والإعلامي
- ٨٣ لجأ إلى حصر التعليم الديني مادّيًا ومعنويًا :
- ٨٤ الابتعاث إلى الخارج إلى الدول غير الإسلاميَّة
- ٨٦ انتشار المدارس الأجنبيَّة في البلاد الإسلاميَّة :
- ٨٦ الازدراء باللغة العربية وإضعافها في التعليم العام :
- ٨٩ نشر الاختلاط بين الجنسين في مراحل التعليم :
- ٩٣ السادس : الجانب الاقتصادي :
- ما بين تطبيق العُلَمائِيَّة في الغرب وتطبيقها في العالم الإسلامي
- ٩٥

- ١٠٢ الخاتمة : سبيل استعادة هويّة الأمة الإسلامية
- ١٠٦ ثبت المصادر والمراجع